13

وظيفة العمر

تعليم ذاتي يُعرِّف المسلم بأهمية التوبة
وضرورة ملازمة المسلم لها في كل أوقات حياته

مركز أصول Osoul Center
www.osoulcenter.com
Rabwah

وظيفة العمر

تعلم ذاتي ضمن سلسلة
السلوك والتزكية للمسلم الجديد

مركز أصول
Osoul Center
www.osoulcenter.com

ⓒ جمعية الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالربوة ، ١٤٤٥هـ

مركز أصول
سلسلة السلوك والتزكية (١٣) : وظيفة العمر. / مركز أصول -
ط١. .- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٢٢ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٥٧٢١
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٤١٧-٢٨-٧

- قام المركز بتصميم هذا الإصدار.
- يتيح المركز طباعة الإصدار ونشره بأي وسيلة مع الالتزام بالإشارة إلى المصدر، وعدم التغيير في النص.
- في حالة الطباعة يجب الالتزام بمعايير الجودة التي يعتمدها مركز أصول.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله مذلل الأمور الصعاب، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على محمد النبي المرسل بالكتاب، ومرشد الخلق وهاديهم إلى الحق والصواب، وعلى آله والأصحاب، وبعد:

فالتوبة وظيفة العمر، وهي العبادة المستمرة الملازمة للمسلم في كل حين إلى أن يلقى الله عز وجل.

يخطئ فيرجع إلى ربه ويتوب، ويتخذ من خطئه عبرة وعظة، ومن معصيته دليلًا على ضعفه وافتقاره لربه المتصف بالكمال والجلال؛ فهو الذي يرحم العصاة ويتوب على المخطئين.

وبهذه التوبة ينال العبد محبة الله؛ فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وحينها يكون العبد قد حصَّل أعلى ما يتمنى، فماذا بعد محبة الله له؟!

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة في القرآن الكريم في سبعة وثمانين موضعًا؛ بين دعوةٍ إليها، وترغيبٍ فيها، وثناءٍ على أهلها، وبيَّن - سبحانه - أن التوبة خير من الإعراض عنها والمواظبة على الذنب: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤﴾ [التوبة: ٧٤].

وإنما كانت التوبة خيرًا لصاحبها؛ لما يترتب عليها من السعادة في الدنيا والآخرة، ولما لها من منزلة في الدين تبينها فضائلها الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا معالجة لقضايا التوبة المختلفة؛ حيث سنستعرض فيه معناها، وشروطها، وآثارها، وطريقها، والأخطاء التي يقع فيها بعض من أراد التوبة، وسنوضح محبة الله للتائبين المنيبين، ونبيِّن أن الإنسان من طبيعته الغفلة والتقصير، وأن الله سبحانه وتعالى مُتَّصِف بصفات العفو والغفران، وأنه شديد العقاب سبحانه.

سنستعرض في الكتاب أيضًا بعض قصص التائبين؛ لنتأسى بهم، ونعلم أن الله توَّاب على من تاب، ورحيم بمن عاد إليه وأناب، وأنه قد أوجب التوبة على جميع المؤمنين في كل حال، كما قال سبحانه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: ٣١]، وكما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

نرمي في هذا الكتاب إلى أن يعلم القارئ الكريم أهمية التوبة، وضرورة ملازمة المسلم لها في كل أوقات حياته، وأن يعرف حب الله للتوابين والمستغفرين، ويستشعر نعمة الإسلام الذي يهدم ما قبله من الكفر والعصيان، وأن يتعلّمَ أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن الإنسان لا يرث الخطيئة كما في بعض الأديان والمعتقدات.

نسير في الكتاب أقرب ما يكون إلى طريقة التعلم الذاتي؛ فنخاطب القارئ ونحاوره، ونذكر ما توصلنا إليه من نتائج وخلاصات، ونسأل الله أن نكون وفقنا في ذلك، وأن يكتب لنا فيه القبول ليكون سببًا في تثبيت المؤمنين على هذا الدين، ورضًا لنا عنده سبحانه يوم الدين.

اللهم إنا نسألك أن توفقنا للإصابة، وتكرمنا بالتوبة والإنابة، وأن تفتح لأدعيتنا أبواب الإجابة، وأن تذيقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك؛ فأنت أهل العفو والمغفرة.

محتويات الكتاب

المحور الأول

يولد الإنسان على الفطـرة

الخطيئة لا تورَّث ١٠

عدل الله عز وجل ١٦

مفهوم التوبة وأسسها ٢٠

باب التوبة مفتـوح ٢٨

التقويم ٣٦

المحور الثاني

فضائل التوبة وأحكامها

من فضائل التوبة ٤٢

شروط التوبة ٤٤

التقويم ٥٦

المحور الثالث

طريق التوبة

التوبة طريق السعادة ٦٢
التوبة أهم وظائف الحياة ٧٠
حبُّ الله تعالى للتائبين ٧٤
التقويم ٧٨

المحور الرابع

آثار التوبة

التوبة طهارة للإنسان ٨٤
أسرة نقية ومجتمع سامٍ ٨٦
آثار حب الله للتائبين ٩٠
التقويم ٩٢

المحور الخامس

من قصص التائبين

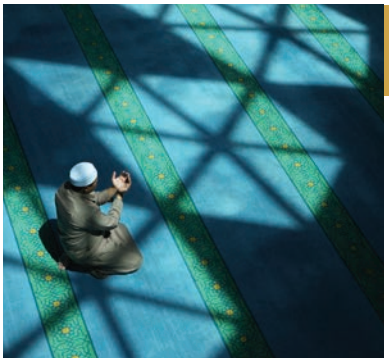

تمهيد ٩٨
قصة كعب بن مالك ﷺ ١٠٠
قصة أبي لبابة ﷺ ١٠٦
قصة توبة الْكِفْلِ من بني إسرائيل ١١٠
التقويم ١١٤

يولد الإنسان على الفطرة

أهداف المحور

يتوقع في نهاية المحور أن يكون القارئ قادرًا على أن:

- يشرح بطلان عقائد توريث الخطايا.
- يستشعر عدل الله تعالى.
- يستدل على توبة آدم عقلًا ونقلًا.
- يكوِّن مفهومًا للتوبة يتوافق مع ما جاء في القرآن والسنة.
- يفرِّق بين التوبة والاستغفار.
- يبيِّن علاقة التوحيد بالتوبة والاستغفار.

الخطيئة لا تورَّث

قرأت في كتابٍ حوارًا دار بين أحد العلماء المسلمين وبين ضيف نصراني يعتقد أن البشر ورثوا خطيئة أبيهم آدم، وأن المسيح قد افتدى خطايا الناس؛ وفي أثناء استقبال العالم للضيف في المكتب انسكبت دواة حبرٍ على ثوب العالم محدثة بقعة سوداء في ثوبه الأبيض، فبادر القسيسَ وسأله: لو أنك غسلت ثوبك هل ينظف ثوبي؟ وهل يتسخ ثوبك لو انسكب الحبر على ثوبي؟

قال القسيس: بالطبع لا!

قال العالم: فبالمنطق ذاته؛ لو أذنبتُ أنا هل يصح أن تتوب عني، وتفدي خطاياي بعملك أنت؟

هذه الحادثة والمحاورة أثارت انتباهي وتفكيري تجاه التوبة والمغفرة وتكفير الخطايا، والفرق بين الإسلام وغيره من الأديان التي تقول بتوريث الخطيئة، وبدأت رحلة علمية فكرية للبحث عن الصواب في هذه المسألة.

ارجع إلى كتاب «لماذا أنا مسلم ؟» من هذه السلسلة، واقرأ فيه عن التحرر من المعاصي والذنوب .

فلنتدبَّر كلام الله:

قال الله -سبحانه- مبيِّنًا قانون العدالة الإلهية المطلقة الذي لا ظلم فيه ولا جور:

❖ ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٣-١٥].

❖ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الروم: ٤٣- ٤٥].

ناقش

- ما الفكرة أو المعاني المشتركة بين الآيتين السابقتين؟
- ما النتيجة التي تستنبطها؟

نتيجة

إن عدل الله تعالى يتجلى في محاسبة العبد على خطئه وذنبه دون تحمل جريرة غيره، إذ لا يحمل أحد ذنب أحد؛ أبًا كان، أو أمًّا، أخًا كان أو أختًا، ابنًا كان أو ابنة، زوجًا كان أو زوجة، ثم من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فأي عدالة أعظم من هذه العدالة؟

ثم لنتفكَّر في قول النبي ﷺ:

«كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

قال [أي الراوي]: وحسبت أن قد قال: «والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته» (البخاري: ٢٤٠٩).

نتيجة

إن مسؤولية كل إنسان عمن هم تحت سلطانه ورعايته، هي الدعوة بالحسنى، والتربية الصحيحة والقويمة، وحسن التعهد لمن اؤتمن على رعايتهم، ومنعهم من الخطأ، ومحاسبتهم عليه في حدود سلطانه، ولا يحمل المرء بعدها وزر أحد أو خطيئته؛ إذ كل إنسان مسؤول عن تصرفاته الشخصية، ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها.

ناقش

- **ماذا تفهم من هذا الحديث؟**
- **ما حدود المسؤولية التي يتحملها الإنسان عن غيره ممن هم في رعايته؟**

هذا هو عدل الله المطلق كما يقرره الإسلام، ولك أن تسأل: ما هي عقيدة "الخطيئة الأولى"؟ وما معنى توريث الخطيئة؟ وما علاقتها بتوبة آدم عليه السلام ومعصيته؟

فلنقرأ الآيات الآتية:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١١٥ - ١٢٢]

ويقول سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٧-٣٨]

- ما المعصية التي وقع فيها آدم عليه السلام؟
- لماذا قبل الله توبة آدم عليه السلام، ثم اجتباه؟

أسكن الله تعالى آدم وزوجه عليهما السلام الجنة، وأذن لهما أن يأكلا من كل ما فيها إلا شجرة واحدة أمرهما ألّا يقرباها، وحذرهما من الشيطان الذي هو عدو لهما، فنسي آدم عهدَ الله له بعدم طاعة الشيطان، وصَدَّقَ إبليسَ في حَلفه بالله أن من الخير له أن يأكل من الشجرة، وبحُسن الظن أكَلَ هو وزوجه منها، ولم يصبرا عما نُهِيَا عنه.

لقد شاء الله أن يكون آدم أول ضَحيَّة لإبليس في تنفيذ مُخَططه الذي أقسم عليه في إغواء بني آدم، وذلك ليكون آدم قدوة وأسوة لذريته في التوبة والإنابة بعد المعصية، فعندما شعر آدم وزوجه بآثار المخالفة، وبدَت لهما سَوْآتُهما تنبَّها إلى مُخَطط الشيطان، وبعد عتاب الله لهما وتذكيرهما بعهده ألْهَمهما كلماتٍ قالاها، مُقِرَّيْن بخطئهما، طالبَيْن عفوَ الله ومغفرته، **فقبل الله منهما التوبة**؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

توريث الخطيئة في النصرانية:

في مقابل هذه الرؤية الإسلامية الناصعة البياض، المقبولة عقلًا، نجد الرؤية النصرانية تتحدث عن عقيدة "الخطيئة الأولى"، التي تعني الخطيئة التي اقترفها آدم عليه السلام، فبهذه الخطيئة سقطت البشرية كلها وأبناء آدم من بعده في الإثم! فالبشر يولدون مخطئين مذنبين! فهم يرثون عن أبويهما تلك الخطيئة وعواقبها،

وهم بذلك مستحقون للعذاب الأبديِّ قبل أن يقعوا في أي ذنب!

ولكل عاقل منصف أن يتساءل:

بأي عقل يتحمل الإنسان مسؤولية أفعال غيره، حسنة كانت أم قبيحة؟!

أين عدل الله ورحمته في أن يولد الطفل مذنبًا خاطئًا وهو لم يفعل أي شيء بعد؟!

أين عدل الله ورحمته في أن يورِّث رجل واحد ذنبه لمليارات البشر الذين سيأتون من بعده؟!

هذه معتقدات لا وجود لها في ديننا الحنيف، ولا مصداقية لها، لسببين رئيسَين:

أولهما: أنَّ الله قد غفر لآدم حين أراد الخلد في جنة الله فأكل من الشجرة بعد أن وسوس له الشيطان، ونسي أمر الله، فهذه الغفلة انتهت بتوبة صادقة من آدم عليه السلام؛ فغفر الله له ولم يعد عليه ذنبٌ أصلًا، واقرأ قوله سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

ثانيهما: أن توريث الخطيئة ظلمٌ بيِّن، والله عز وجل منزَّه عن الظلم، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

بل إنَّ فضل الله على الناس أعظم من ذلك:

يقول ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] . (البخاري: ١٣٥٨).

بحسب رأيك:

- هل يُخلَق الإنسان مُبَرَّأً من كل الذنوب والمعاصي؟
- هل في القرآن أو السنة ما يشير إلى أن المولود يحمل عمن سلفه شيئًا من أخطائه؟ أم أن القادم الجديد إلى هذه الدنيا يأتي نقيًّا من الخطايا كثوب أبيض لا دنس فيه ولا رجس؟
- ما هو الفرق بين المعتقد الإسلامي والمعتقد النصراني في مسألة توريث الخطيئة؟ وأيهما يحقق العدل؟ علِّل الجواب.

ناقش الأسئلة السابقة مع أصدقائك في ضوء ما تعلمته من القرآن الكريم والسنة الشريفة.

خلاصة ونتيجة

لا يمكن للخطيئة أن تورَّث، فالله سبحانه وتعالى مُتَّصِفٌ بالعدل المطلق؛ فمن أذنب فإن ذنبه على نفسه، ولا يحمل ذنبه من جاء بعده، وهذا مصداق قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

نشاط إثرائي

ابحث في المصادر أو الإنترنت عن دلائل الفطرة التي فطر الله الناس عليها، دون تبديل أو تحريف.

سجِّل تلك الدلائل في دفترك، وناقشها مع زملائك، وشاركها مع أصدقائك.

بإمكانك الرجوع إلى كتاب "الإسلام دين الفطرة" للشيخ عبد العزيز جاويش، أو إلى أي مصدر آخر موثوق.

عدل اللّٰه عزوجل

بناء على حقيقة أن الخطيئة لا تورَّث، وأن ذلك من عدل اللّٰه تعالى ورحمته، وردت عليَّ خواطر في قول اللّٰه تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النساء: ٤٠].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: ٤٤].

فتفكَّر معي ثم ناقش:

- لماذا حرَّم اللّٰه الظلم على نفسه؟
- ما معايير العدالة التي وضعها اللّٰه سبحانه لعباده؟
- أليس اللّٰه بغنيٍّ عن عباده؟ فلماذا يعاملهم بهذا اللطف والفضل؟

من أجمل الأحاديث التي تُظْهِر رحمة الله وكرمه وعدله ما ورد في الحديث القدسي عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم مُحَرَّمًا، فلا تظالموا.

يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا أدخل البحر.

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه». (مسلم: ٢٥٧٧).

- حلل مضمون الحديث القدسي السابق، ثم اربط الأفكار التي تضمنها بالأفكار التي سبق طرحها في كتابنا هذا.

إثراء

الحديث القدسي: هو جزء من السنة الشريفة، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يرويه عن الله عزّ وجل، وليست كلّ الأحاديث القدسية صحيحة؛ فمنها الصحيح، ومنها الموضوع، ومنها الضعيف، فهو يخضع لقواعد علم مصطلح الحديث في الحكم عليه، كبقية السنة والحديث الشريف.

لاحظ

حرَّم الله على نفسه أن يظلم عباده؛ بمحاسبتهم بذنوب غيرهم ومعاقبتهم عليها، أو بإنقاص شيء من جزاء حسناتهم، فهو العدل الذي لا يَظلم ولا يُظلم لديه أحد، و قد ورد ذلك كثيرًا في كتابه العزيز، كقوله عز من قائل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وتكررت في (الأنفال: ٥١)، وكقوله في آية الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ١٠]، وفي سورة ق: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾[ق: ٢٩]، وكقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وغيرها من الآيات التي تبيِّن عدل الله وفضله على عباده، وثواب المحسنين وعقاب المسيئين، دون جور أو ظلم ولو بمثقال ذرة.

نتيجة

إن الله سبحانه وتعالى اللطيف الخبير العدل قد خلق الخلق، وجعلهم مستخلفين في هذه الأرض، وبيَّن للإنسان سبيل الخير والرشاد، وسبيل الشر والضلال، فمن سلك طريق الهدى والنور والخير والإيمان، فله الفلاح والنجاح؛ بفضل الله وتوفيقه. ومن سلك طريق الضلال والظلمات والشر والكفر فله الخيبة والخسران؛ بعدل الله وحكمته، والله لا يظلم الناس مثقالَ ذرة، فالله عدل لطيف، كتب على نفسه أنه لا يظلم رحمة بعباده وفضلًا منه، لا جبرًا ولا اضطرارًا.

لا تزر وازرة وزر أخرى:

تأمَّل الآيات الآتية:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٧].

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٦- ٤١].

نشاط إثرائي

❖ **ما القضية البارزة المشتركة بين الآيات السابقة؟**

ارجع إلى كتب التفسير، وبيِّن أوجه التقارب بين الآيات السابقة، وابحث عن سر تكرار هذه القاعدة العظيمة: ألا تزر وازرة وزر أخرى.

وهنا قد يخطر في ذهن المرء سؤال:

هل هناك طريق لمحو الخطايا والذنوب إن وقعت من العبد؟

والجواب نعم، إن الله تبارك وتعالى قد فتح لنا سبيلًا لا يُغلَق أبدًا -ما دمنا في الحياة الدنيا- هو طريق التوبة والعودة إلى الله، وهو طريق وضعه الله لعباده؛ ليعودوا إليه بعد أن يقعوا في الذنوب والمعاصي. ولكن...

ما السبيل إلى تلك التوبة؟

وما المعاني التي تحملها؟

هذا ما سنتبينه في المحاور القادمة بعون الله.

مفهوم التوبة وأسسها

تعريف التوبة:

قرأتُ قوله تعالى في حق الملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

فتساءلت:

- هل خلق الله البشر كاملين لا نقص فيهم؟
- هل أستطيع -أنا الإنسان- أن أعيش في كمال دائم دون خطأ أو معصية؟
- لماذا لم نُخلَق كالملائكة دون خطيئة؟
- ماذا يفعل من وقع في خطأ؟

- ❖ هل خطرت في بالك هذه الأسئلة من قبل؟
- ❖ بم أجبت عنها؟

ثم تأمَّلت قول النبي ﷺ:

- «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم» (مسلم: ١٤٧٠).
- «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» (ابن ماجه: ٤٢٥١، وحسنه الألباني).

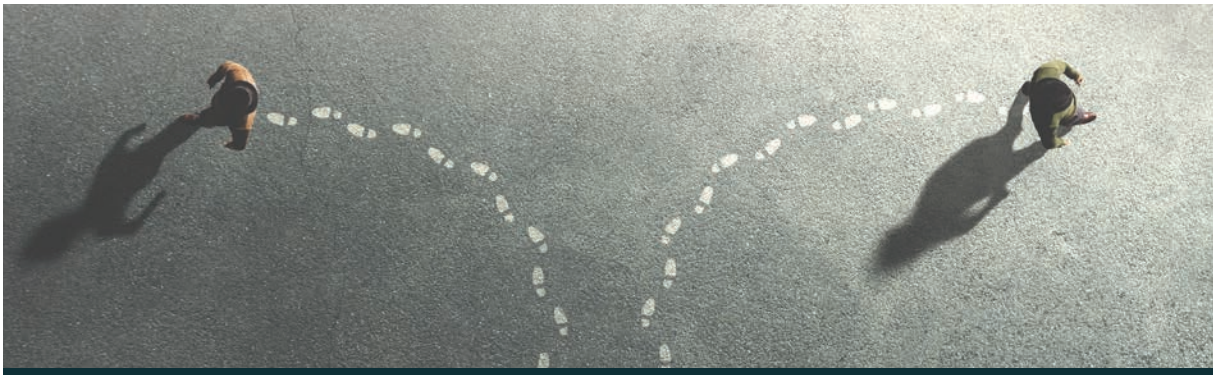

نتيجة

يختلف خلق الإنسان عن غيره من المخلوقات، فهو مخيَّر ومكلَّف؛ ولذلك يثاب ويعاقب، ومن صفات البشر الضعف والتقصير، وهي صفات تسبب اقتراف الذنوب، والوقوع في العصيان، والإنسان بطبعه يغفل ويسهو ويخطئ ويعصي، أما الملائكة فمجبولة على الطاعة وعدم المعصية دون تخيير لهم.

نشاط إثرائي

- ورد في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي...» (الترمذي: ٣٥٤٠).
  - من أسماء الله الحسنى: الغفور، والرحيم، والتواب، فما معنى ذلك؟
  - استخرج من كتب السنة بعض الأحاديث التي تتعلق بتوبة الله على عباده، وحضهم على العودة والإنابة.

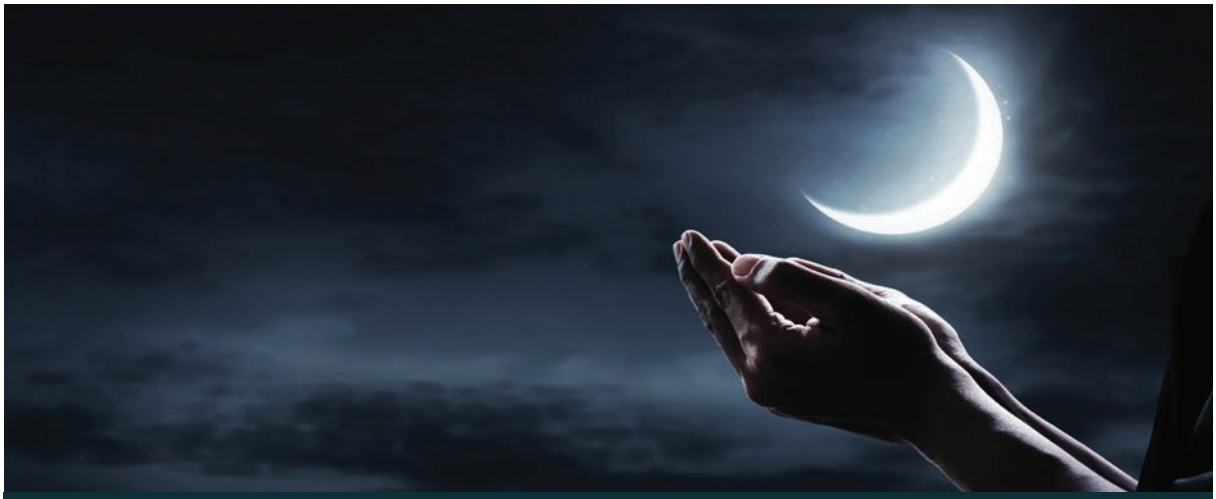

النتيجة والخلاصة

الذنب في أصله نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور، ولا مطمع لأحد بالإفلات من الذنوب والمعاصي؛ لضعف الإنسان، ولأن الدنيا دار امتحان.

والتوبة: تمحو كل ما يبدر من العبد من نقص وعيوب وأخطاء، إن كانت توبته بصدق وإخلاص ووفق شروطها، فما دام العبد يدعو الله - عز وجل - ويرجو مغفرته، ويستغفره لما فرط منه، فإنه - سبحانه - يغفر له ذنوبه، وإن تكررت وكثرت؛ لأنه - سبحانه - لا يتعاظمه ذنبٌ، كبيرًا كان أو صغيرًا.

التوبة والاستغفار وظلم النفس:

تساءلت في نفسي: كثيرًا ما يرد في الآيات القرآنية اقتران التوبة بالاستغفار :

كما قال عز وجل: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[هود:٣] .

وكما أخبر عن قول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[هود:٥٢] .

وكما أخبر عن قول صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾[هود:٦١] .

وعن قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[هود:٩٠] .

فما الرابط بين التوبة والاستغفار؟

فوجدت أن بينهما عمومًا وخصوصًا، وأنّهما لفظان يشتركان في المعنى؛ فعند الافتراق يكون لكل منهما نفس المعنى، أما عند الاقتران فإن لكل واحد منهما معنًى خاصًّا؛ فالاستغفار يكون عن ذنبٍ مضى، والتوبة لما يستقبل، فالاستغفار مقدمة للتوبة.

والتوبة أكثر تعلقها بالقلب، وتكون بعد عمل السيئات وفي كل وقت، وتحمل معنى العزم على عدم الرجوع للذنب، أما الاستغفار فيكون باللسان بعد عمل السيئات، ويكون بعد كل عمل حتى الطاعات، كما سيمر لاحقًا.

قال العالم ابن القيم رحمه الله: (الاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله. فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على ألا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

فها هنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت "التوبة" بالرجوع، و"الاستغفار" بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا جاء – والله أعلم – الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود:٣] فإنه الرجوع إلى الطريق الحق بعد مفارقه الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة: طلب جلب المنفعة، فالمغفرة: أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده).

تفكّرت في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣]، وتساءلت:

- كيف يعقل أن يظلم الإنسان نفسه؟
- ما ظلم النفس في الآية؟
- ما السبيل إلى الخلاص من الظلم بهذا المعنى؟

فوجدت أن الإنسان ظلوم جهول، إلا من زكّاه الله بالإيمان والتقوى، والعلم والهدى، والعدل والإنصاف.

ومن صور ظلم النفس: الابتعاد عن أمر الله وارتكاب نهيه؛ لأن في ذلك إساءة لها، فكل فعل يبدر من الإنسان، خيرًا كان أم شرًّا، يترك أثره في تكوين الإنسان النفسي، وسلوكه الاعتيادي، فالذنوب والمعاصي إذا تراكمت وتجمّعت، صنعت حاجبًا ضبابيًّا، يحول بين النفس ورؤية النور وتلمّس طريق الاستقامة؛ فهناك علاقة طبيعية بين تراكم المعاصي والتطبّع والاعتياد على الانحراف، وتشكيل شخصية إنسانية معقّدة ومريضة ومشوهة الفطرة.

هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن الذنوب والمعاصي سبب لدخول النار، وأي ظلم للنفس أعظم من تعريضها للنار؟!

وتفكَّرت كذلك في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر:٥٣]

فتساءلت عن سبب نزول الآية، وإن كان الاستغفار يشمل كل الذنوب.

ووجدت الآية عامة في كل من أسرف على نفسه ثم تاب، وتشمل كل الذنوب، وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزَنَوْا وأكثروا، فأَتَوْا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾، ونزلت: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (البخاري: ٤٥٥٠).

وتفكَّرت في قوله سبحانه: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة:١٠٢].

فاستنتجت أنَّ الاعتراف بالذنب والإقرار به، واليقين بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله؛ من أسباب قبول التوبة والاستغفار، فنصوص التوبة والاستغفار تؤكد أهمية الاعتراف بالذنب، الذي هو جزء من التوبة. وليس المقصود الاعتراف بين يدي الكاهن كما في النصرانية أو غيرها، ولكن اعتراف بين يدي الله وحده.

أفضل الاستغفار ما اقترن به ترك الإصرار، وهو حينئذ توبة نصوح (من كتاب: جامع العلوم والحكم، لابن رجب)

من دعائه ﷺ الذي علمه لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم". (مسلم: ٢٧٠٥).

- **اشرح الدعاء السابق مبيِّنًا معنى ظلم النفس.**
- **بيِّن شروط قبول الاستغفار، مسترشدًا بالدعاء السابق.**

إثراء

علاقة التوحيد والعبادة بالتوبة والاستغفار:

تدبَّر معي ما يلي:

- وصية لقمان الحكيم لابنه؛ إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].
- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

ناقش:

- لماذا كان الشرك ظلمًا عظيمًا؟
- لماذا ربط الله سبحانه وتعالى المغفرة بعدم الشرك؟ وما العلاقة بينهما؟

حتى تقبل النفس التزكية والكمال يجب تخليتها من الفساد والضلال، فإصلاح الاعتقاد أصل لإصلاح العمل والعبادة، وفساد الاعتقاد أصله الكفر والشرك، لأنه اعتداء على حقوق الخالق، وظلم من المرء لنفسه؛ حيث يحط بعبوديته لغير الله من قيمة نفسه، وهو الإنسان الذي كرمه الله على العالمين.

فأخطر صور ظلم النفس؛ الشرك بالله، فمن أشرك بالله فقد أسرف في ظلم نفسه؛ لأنه أوردها موردًا للهلاك وأوصد أمامه أبواب الرحمة، فإنه ظلم لا يغفره الله إلا بالإسلام، ولا يتجاوز عنه إلا بالتوحيد.

والإنسان الذي يشرك بالله لا مغفرة له إن مات على شركه، وكيف يطلب المغفرة من الله، وقد كان يعبد غيره؟!

نتيجة

ورد في الحديث أنه لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (البخاري: ٣٢٧٢، ومسلم: ٢٠٧).

لاحظ

خلاصة

تحقيق التوحيد على ضوءٍ من الكتاب والسنَّة، والإخلاص لله، واستغراق النفس واللسان والجوارح في عبادة خالقها، وشعور الإنسان بالتقصير الشديد في حقِّ الله العزيز الحميد، واستشعاره لفظاعة الذَّنب وشناعة المعصية، كل ذلك يقود العبد إلى محاسبة صادقة للنَّفس، فتعزم عزيمةً صادقة على التوبة والتطهر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فيؤدي ذلك إلى استمرار التوبة الخالصة لله ربِّ العالمين.

- بيِّن علاقة التوحيد بالاستغفار، مستشهدًا بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث من السنة المطهرة.

يمكنك العودة إلى: شروح حديث النبي ﷺ في قوله عن نفسه: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ» (مسلم: ٢٧٠٢)، كشرح النووي على صحيح مسلم.

- ارجع إلى كتب التفسير المعتمدة، وكتب أسباب النزول، ولخِّص ما جاء في سبب نزول الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام ٨٢]، وتعرَّف على معنى الظلم، والشرك بالله، ولماذا سَمَّى الله الشرك ظلمًا، وشارك أصدقاءك ما تصل إليه من معلومات.

نشاط إثرائي

تدبَّر

تدبَّر الآية الآتية ثم أجب:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأَنْعَام: ٨٢].

- ما المقصود بالظلم في الآية السابقة برأيك؟
- هل يمكن للمرء ألَّا يظلِم أبدًا؟

لا قيمة لعمل بلا إخلاص، ولا إخلاص دون توحيد، ولا ثواب بلا رضا وصبر وشكر، وذلك مرتبط بالمحبة والتوكل والحياء والتوبة ، للمزيد ارجع إلى كتاب «أعمال القلوب» من هذه السلسلة .

باب التوبة مفتوح

استوقفتني قصة عظيمة لقاتل من بني إسرائيل قتل مئة نفس ثم أراد التوبة، فتساءلتُ: قتل مئة ويريد التوبة؟!

وهل يمكن لمن قتل نفسًا عمدًا أن يتوب الله عليه، فضلًا عمن قتل مئة نفس؟

- ❖ هل خطر في بالك هذا السؤال من قبل؟
- ❖ هل تساءلت يومًا عما تشمله التوبة، وهل هي للصغائر من الذنوب فقط، أم تشمل كل ذنب، حتى الكبائر؟

استمتع إلى القصة من النبي ﷺ حيث يقول: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مِئَةً. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مِئَةَ نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة». [أخرجه مسلم: ٥٠٧٤].

ماذا تستنتج من هذه القصة؟

هل هذه القصة خاصة بمن حدثت له، أم تشمل كل الناس إلى يوم الدين؟

هذا الرجل، مع كل الذي اقترفه، كان لا يزال في قلبه بقيةٌ من خير، وبصيصُ أمل يدعوه إلى أن يطلب عفو الله ومغفرتَه، فخرج من بيته يبحث عمن يفتح له أبواب الرجاء، ويدلُّه على باب التوبة، ويأخذُ بيده لكي يصل إلى الله، فدلُّوه على راهب عابد.

دعنا نتساءل:

- تخيل نفسك مكان ذلك الراهب العابد، ماذا كنت ستفعل؟ وكيف ستجيبه؟ ولماذا؟
- هل تظن أن العابد أجابه عن علم؟
- ما تقويمك لموقف ذلك الرجل الذي أكمل بالراهب قتل مئة نفس؟
- إذا كان عند الإنسان العاصي بأعظم الذنوب بقية خير في نفسه، فهل تظن أنه سيستسلم لشيطانه ونفسه؟ أم سيسعى دومًا للخلاص من ذنوبه وتبعاتها؟

لاحظ

ثم ماذا بعد قتل مئة نفس؟

هل فقد الرجل عزيمة التوبة الصادقة، وهمة الإنابة، وبوصلة نور الهداية؟

لا، فبقية الخير والفطرة السليمة التي خلقه الله عليها جعلته يخرج ثانية يبحث عمن يأخذ بيده إلى الهداية والتوبة، ويسأل عمن يرشده، ويوجهه، ويعلمه، حتى دلوه على رجل عالم، فذهب إليه، و قال:

لقد قتلتُ مئة نفس، فهل لي من توبة؟

فقال ذلك العالم العارفُ بربه والمدركُ لسعةِ رحمة الله تعالى: نعم لك توبة، ومن يحول بينك وبين التوبة؟!

أبشر فالله رحمن رحيم، ولكن لابد أن تنتقل من قريتك فهي بيئة فاسدة ساعدت في انحرافك عن الصراط المستقيم، إلى قرية أخرى صالحة، يُعينك أهلها على الطاعة.

إن ظهور أحد الناس بمظهر العبادة والصلاح مع أنه جاهل، واتخاذه إمامًا وقدوة يكون وبالًا عليه وعلى الناس، يقول رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتَوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا» [البخاري: ١٠٠ ومسلم: ٢٦٧٣]

وأما العالم فإنه يفتح للناس الأبواب المغلقة التي ما ظنوا أن تفتح لهم: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلاَ تُنَفِّرُوا» [البخاري: ٦٩ ومسلم: ١٧٣٢].

لاحظ وتنبه

هل انتهت القصة هنا؟

لا، فقد خرج من قريته السيئة ومن بيئته المليئة بالمنكرات والشرور، وانطلق إلى القرية الصالحة التي سيجدُ فيها الرفقةَ الصالحة.

وفي منتصف الطريق، وهو يمشي بخطواتِ الصدق، نزلت به سكرةُ الموت!

فماذا كانت نتيجة صدقه مع الله في التوبة؟

جاءت ملائكةُ الرحمة لتأخذ روحه إلى رحمة الله ومغفرته؛ لأنه رجلٌ تائب وصادق.

وجاءت ملائكةُ العذاب لتقبضَ روحه لأنه رجلٌ قتل مئة نفس، فهو مجرم عنيد، فحدث الخلافُ بين ملائكةِ الرحمة وملائكةِ العذاب.

لكن الله اطلع على صدقِ نية الرجل وصفاءِ سريرته، فبعث مَلَكًا على صورة آدمي، ليعلمهم ما يصنعون مع ذلك الرجل، فقال الملَك: قِيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيَّتِهما كان أدنَى، فهو لها، فقاسوا الأرض، فوجدوه أقربَ إلى القرية الصالحة بشبر واحد، فأخذته ملائكة الرحمة لتنقله إلى رحمة أرحم الراحمين.

ناقش

هل كل الذنوب يمكن مغفرتها؟ وهل يعقل أنَّ من اقترف أعظم الخطايا والآثام، وارتكب أبشع الفظائع يتوب الله عليه؟

خلاصة

إن سعة رحمة الله وعظيم عفوه لا يدركهما أحد إلا الله سبحانه وتعالى، وإن العبد مهما أذنب أو عصى، ثم تاب إلى ربه يجد الله توابًا رحيمًا.

تدبَّر ثم ناقش:

قال سبحانه وتعالى في سورة الفرقان يعدّد صفات عباد الرحمن الكثيرة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ٧١﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧١].

- ماذا تستنبط من هذه الآيات؟
- ما صفات العباد التائبين؟
- ما علاقة العمل بالتوبة؟ وما نوع العمل المطلوب من العبد بعد التوبة؟ ولماذا؟

خلاصة

إن مقياس التوبة والمغفرة لا يحيط به بشر؛ لأنه من رحمة الله التي وسعت كل شيء.

إن التوبة تجبُّ ما قبلها وتمحوه، بل إنها تبدل سيئات الذنوب حسنات، وهذا مصداق قوله تعالى في الآيات السابقة.

في الحديث القدسي: «يقولُ اللَّهُ تَعالَى: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [البخاري:٧٤٠٥]

إثراء

هل مرت بك قصة مشابهة لقصة قاتل بني إسرائيل في توبته؟ ابحث عن قصة مشابهة، واذكرها لمن حولك مظهرًا عظيم رحمة الله.

هل قرأت سبب نزول قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]؟

استوقفني سبب نزول هذه الآية، فقد قيل إنها نزلت في صحابي اسمه "وحشي ابن حرب" ﷺ.

- فهل تعرف قصته، وذنبه الذي اقترفه قبل إسلامه؟

وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب ﷺ عم رسول الله ﷺ، وأسد الله وأسد رسوله ﷺ، من أيَّد الله بإسلامه مستضعفي المسلمين بمكة قبل الهجرة.

طلبت امرأة من وحشي -وكانا حينها على الكفر- أن يقتل حمزة انتقامًا لأبيها وأخيها اللذَين قُتلا في معركة بدر مع المسلمين.

أرسل وحشي حربته في معركة أحد، فانغرزت في كبد حمزة ﷺ، واستشهد على إثرها، فحزن رسول الله ﷺ عليه أشد الحزن، وكانت مصيبة المسلمين باستشهاده ﷺ كبيرة!

وشاء الله تعالى أن تُفتَح مكة لرسوله ﷺ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وكان منهم وحشي بن حرب، جاء معلنًا إسلامه وتوبته أمام رسول الله ﷺ، نادمًا، مترددًا، متسائلًا:

- ❖ هل صدق التوبة والاستغفار يغفر كل الذنوب؟
- ❖ هل يغفر الله لي قتلي حمزة، عم نبيه، وأسد الله ورسوله؟

لاحظ

إن الإسلام يجب ما قبله، وإن التوبة تجبُّ ما قبلها.

لقد نزلت الآية: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٥٣] ***بردًا وسلامًا على قلب وحشي، وعلى قلب كل من عصى وتاب إلى الله، مهما عظم ذنبه، فجاء منيبًا إلى الله بصدق الاعتذار والالتجاء، راجيًا رحمة الغفور الرحيم.***

تدبَّر معي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

- ماذا تفهم من الآية الكريمة؟

خلاصة

إن التوبة الصادقة تكون من الذنوب صغيرها وكبيرها، فكلها يغفرها الله سبحانه وتعالى حتى الشرك، فمن أدركته عناية الله فتاب من شركه وكفره، وأسلم لله مخلصًا فقد سلم بفضل الله ورحمته.

وأما من مات على الشرك فلا عفو عنه ولا مغفرة له، وإن كان تاب من كل الذنوب وأقلع عنها.

لاحظ وانتبه

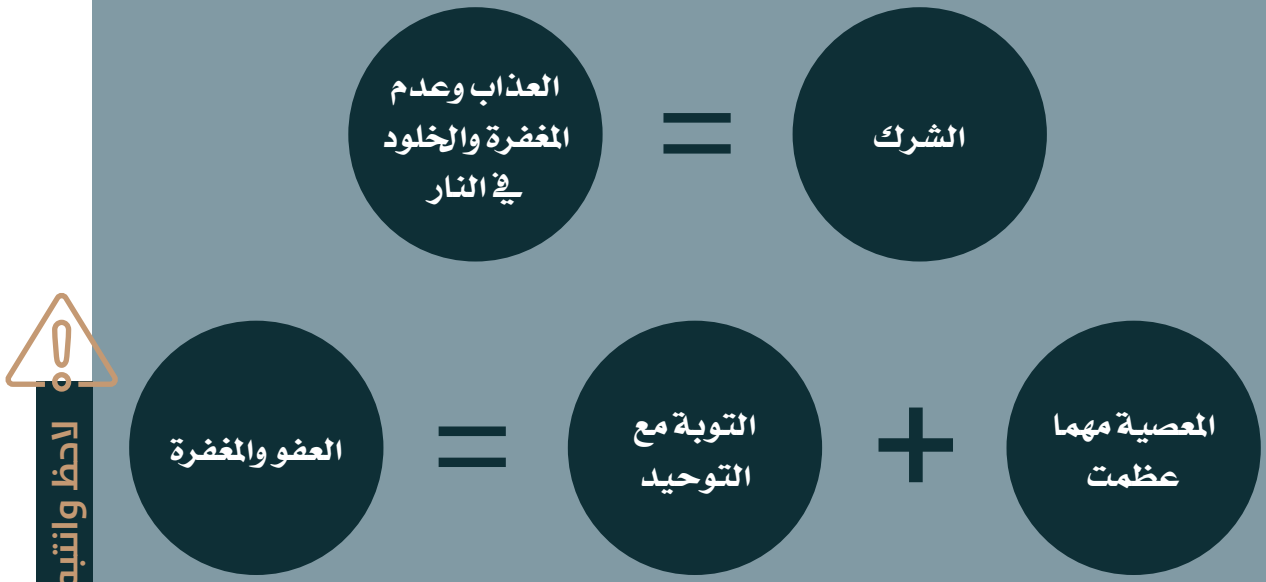

نشاط إثرائي

- ارجع إلى كتب السير والتراجم وقصص الصحابة، واقرأ قصة وحشي بن حرب وإسلامه، وجهاده في سبيل الله بعد إسلامه، وقتله مسيلمة الكذاب بحربته، ولخِّص القصة في دفترك، ثم اقرأها أمام زملائك وأصدقائك.

يمكنك الاستعانة بمواقع الإنترنت أو أحد الكتب الآتية: (سير أعلام النبلاء للذهبي، وأُسْد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، وصور من حياة الصحابة لعبد الرحمن رأفت الباشا)

- ارجع إلى كتب التفسير وأسباب النزول، ولخِّص أسباب نزول الآية: ٤٨ من سورة النساء، مع أقوال المفسرين فيها.

التقويم

١ ما الفرق بين البشر والملائكة من جهة الوقوع في الذنوب؟

٢ هل الكمال يسري على البشر؟ أم أن الكمال لله وحده؟ ولماذا؟ علل ما تقول بالأدلة من الآيات والأحاديث.

٣ هل التوبة تتعلق بذنب دون آخر، أم هي عامة؟ بيِّن ذلك مع الأدلة.

٤ ما المقصود بأن الخطيئة لا تُوَرَّث؟

٥ ما معنى: باب التوبة مفتوح؟

٦ ماذا يجب على العبد أن يفعل إن أراد التوبة؟

٧ ما أثر الصحبة الصالحة في العون على الطاعة؟ دلِّل على ذلك من حديث قاتل المئة؟

٨ هل صدق التوبة والعزم عليها له أثر في حياة المسلم؟ بيِّن ذلك مستفيدًا من قصة وحشي بن حرب ﷺ.

٩ أجب بصح أو خطأ وصحِّح الخطأ:

١. ( ) خلق اللّٰه البشر؛ ليعذبهم إن أخطؤوا، ويعاقبهم جزاء سيئاتهم.

٢. ( ) خلق اللّٰه البشر؛ ليمتحنهم، وفتح باب المغفرة والتوبة لمن أخطأ ثم أناب وعمل صالحًا.

فضائل التوبة وأحكامها

أهـداف المحور

يتوقع في نهاية المحور أن يكون القارئ قادرًا على أن:

- يستبين فضائل التوبة وأسرارها.
- يلتزم شروط التوبة في حياته.
- يجتنب أخطاء الناس عند التوبة.
- يحدد المعاصي التي تحتاج إلى توبة خاصة.
- يدرب نفسه على اجتناب الذنوب والمعاصي.

من فضائل التوبة

تدبَّر النصوص الآتية ثم أجب:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان: ٦٨ – ٧٠]

وقال رسول الله ﷺ «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النار خروجًا منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال عملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا» قال أبو ذر رضي الله عنه راوي الحديث فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. [أخرجه مسلم: ١٩٠]

- ما المقصود بتبديل السيئات حسنات؟
- من هؤلاء الذين يبدِّل الله سيئاتهم حسنات؟ وما صفاتهم وأعمالهم؟
- ما الذي تستنتجه من الآيات السابقة و الحديث بعد التأمُّل؟

استنتج

من فضائل التوبة أن الله - سبحانه وتعالى - يكفّر السيئات ويتجاوز عنها، وأعظم من ذلك أنه يبدل سيئاتِ التائب حسناتٍ يوم القيامة؛ وهذا من عظيم فضل الله على التائب، فيوم القيامة - وإن وجد الذنب مكتوبًا عليه - فإنه لا يضره، وينقلب حسنة في صحيفته، فتكون التوبة سببًا للفلاح.

تفكَّر في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾

[مريم: ٥٨ – ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

[البقرة:٢٢٢].

ثم أجب:

- من الفريقان الواردان في الآيتين الأخيرتين، وما جزاء كل منهما؟
- ما شروط دخول الجنة للعاصين؟
- من الذين يحبهم الله تعالى كما ورد في الآية الأخيرة؟
- ما علاقة التوبة بالطهارة؟

خلاصة

الفضيلة العظمى للتوبة والاستغفار أن يحب الله تعالى التائب المستغفر المتطهر من ذنوبه، فيعفو عنه، ويمحو عنه الذنب، ثم إذا كان يوم القيامة كافأه الله بإبدال سيئاته حسنات، وأكرمه عز وجل بإدخاله الجنة.

شروط التوبة

دعنا نفكِّر فيما يأتي:

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: ١٧، ١٨].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ». [أخرجه الترمذي: ٣٥٣٧].

- ماذا تستنتج مما سبق؟
- ما زمن التوبة الذي تُقبَل فيه؟ وما الزمن الذي لا تُقبَل فيه؟

نتيجة

إن للتوبة شروطًا، منها: أن يتوب المرء قبل بدء خروج الروح من الجسد ووصولها إلى الحلق، فالروح متى وصلت إلى الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغَتِ الحلقومَ، وغرغرتِ النفسُ، فإن التوبة في ذلك الوقت لا تنفع.

كما في قصة فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهَرَ من الإيمان، انظر: (تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١/ ٤٠٩- ٤١٠).

إثراء

ارجع إلى كتب التفسير، وقارن بين قصة توبة فرعون في لحظة غرقه، في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: ٩٠].

وقوله تعالى في أقوام جاءتهم العقوبة: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤﴾ [غافر: ٨٤].

وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: ١٧-١٨].

قد يخطر ببالك السؤال الآتي: هل هذا هو الشرط الوحيد للتوبة، أم هناك شروط أخرى؟

وهل هناك ذنوب تحتاج إلى توبة خاصة؟

وكيف نفهم حديث النبي ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» [أخرجه ابن ماجه: ٢٤٥٠]؟

دعنا نفكِّر فيما يأتي:

- هل التوبة مكفِّرة لكل أنواع الذنوب؟
- وهل يتوب الله على من سرق مال الناس، وقطع طريقهم، ونهب خيراتهم؟ أم أن التوبة تتعلق فقط بمن كانت معصيته بينه وبين الله؟
- هل شروط التوبة من المعاصي المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق العباد واحدة؟
- وهل التوبة من الذنب تمحو ما كان متعلقًا بمصالح العباد؟ وماذا عن حقوقهم المادية، وأعراضهم، وأموالهم؟

تأمَّل قول النبيِّ ﷺ: «مَن كانت عنده مَظلمة لأخيه؛ من عِرضه أو من شيء فليتحلَّله منه اليوم قبل ألَّا يكون دينار ولا درهم؛ إن كان له عمَلٌ صالح أُخِذ منه بقَدر مظلمَته، وإن لم يَكن له حسنات أُخِذ من سيِّئات صاحبه، فحُمِل عليه». [أخرجه البخاري: ٢٤٤٩].

ماذا تستنبط من حديث النبيِّ ﷺ السابق؟

لاحظ أن هناك شرطًا آخر مهمًّا للتوبة فيما يتعلق بحقوق العباد، ولا تُقبَل التوبة من المذنب إلا بأداء هذا الشرط.

نتيجة

إنَّ حق العباد إن كان حقًّا ماديًّا فلا يمكن العفو عنه والتوبة منه إلا أنْ يردّه التائب على صاحبه أو يتحلَّله منه، فإن كان صاحب الحق ميتًا فإنه يعطيه لورثته، أو يتحلله منهم.

وقد تتساءل: ماذا عن حقّ الآدمي إن كان أدبيًّا؛ كغيبة أو قَذف؟ فهل يُشترط في توبته منه إعلام صاحبه به والتحلُّل منه؟

اعلم أنه إنْ ترتَّب على إعلامه بذلك فتنة وعداوة وبَغضاء فإنَّه لا يذكر له ذلك صراحة، بل يُعلِمه بذلك في الجملة دون تعيين، فيطلب منه المسامحة دون ذكر السبب، ويذكر محاسنه في المجالس التي أساء إليه فيها، ويتوب إلى الله من ذَنبه ويَستغفر لصاحب الحقِّ عليه، ويُكثر من عمل الحسَنات؛ فـ ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، دَرءًا للمفاسد التي قد تترتَّب على المصارحة، وخاصَّة إذا كانت تتعلَّق بالأعراض التي يَغار ويَغضب من أجلها الإنسانُ، ويتمنَّى أن لم يكن قد سمِعها وعلِم بها.

تأمّل

روى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّ رجلًا أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤]، **فقال الرجل: ألي هذا؟ قال ﷺ: «لجميع أمَّتي كلهم»** [متفق عليه]

- ماذا تستنبط من هذا الحديث؟
- ما حكم الفعل الذي قام به الصحابي؟ وما جزاء عمله؟
- هل التوبة من هذا الفعل وما شابهه كانت خاصة بهذا الصحابي، أم عامة؟

خلاصة

إنَّ التوبة تهدم ما كان قبلها من الذنوب إذا كملت شروطها: من الندم، والإقلاع عن الذنب، والعزيمة على عدم العودة، ورد المظالم لأهلها، وكانت التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل الغرغرة.

فشروط التوبة بالتفصيل هي:

- **الإخلاص: وذلك بأن يكون الباعثُ للتوبة حبَّ الله وتعظيمه، والطمعَ في ثوابه، والخوفَ من عقابه؛ فإن الله - سبحانه وتعالى- لا يَقبَل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه - جل وعلا - فقد أخبر بذلك في قوله - عز وجل -: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥].**
- **النَّدم على فعل الذنب، فلا تكون التوبة صحيحة، حتى يكون التائب نادمًا على ما وقع منه.**
- **الإقلاع عن الذنب في الحال، دون تردد أو تأجيل أو تأخير.**
- **العَزم على عدم العودة إلى المعصية والذنب، فيتوب من الذنب، وهو يحدِّث نفسه بأنه لن يعود إليه مرة أخرى.**
- **أن تكون التوبة في زمن قبولها: وهو ما قبل حضور الأجل، وطلوع الشمس من مغربها.**
- **وإذا كان الذنب يتعلق بالعباد فلا بد للتائب أن يرد المظالم إلى أهلها، ويبرأ منها.**

نشاط إثرائي

- ارجع إلى القرآن الكريم وإلى كتب السنة واستخرج منهما الآيات والأحاديث المتعلقة بشروط التوبة.

بإمكانك الاستعانة بكتاب: رياض الصالحين، وكتاب التوبة من شرح صحيح مسلم، وكلاهما للإمام النووي.

- لخِّص شروط التوبة ومعنى التوبة النصوح وأسرارها.

بإمكانك الاستعانة بكتاب: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم.

ما أهم الأخطاء التي يقع فيها الناس في باب التوبة؟

تأمَّل ما يأتي:

قال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾ [الفتح:٢]

وروت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا؟». [أخرجه البخاري: ٤٥٥٧، ومسلم: ٢٨٢٠].

يقول العالم ابن تيمية رحمه الله: "وليست التوبة من فعل السيئات فقط، كما يظنُّ كثيرٌ من الجهّال، لا يتصورون التوبةَ إلا عما يفعله العبدُ من القبائح، كالفواحش والمظالم؛ بل التوبة مِن ترك الحسنات المأمور بها، أهمُّ من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثرُ الخلق يتركون كثيرًا مما أمرهم الله به، من أقوال القلوب وأعمالها، وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أُمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتَّبعونه، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوبًا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يَدْعوه في كل صلاة بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]". [جامع الرسائل ١/ ٢٢٨].

وعن ثوبان ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [أخرجه مسلم: ٥٩١].

- هل خطر ببالك ما خطر ببال السيدة عائشة ﷺ حين استفسرت من رسول الله ﷺ عن سر إكثاره من القيام والعبادة والاستغفار؟
- ألم يغفر الله لنبيه ﷺ كل ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر؟ فلِمَ كان رسول الله كثير الاستغفار؟
- هل كان استغفار رسول الله ﷺ لذنب ارتكبه؟
- ما الذي يجب أن تكون عليه حالنا بعد الاطلاع على حال النبي ﷺ؟
- هل تساءلت عن سبب استغفار الرسول ﷺ عقيب الصلوات وغيرها من العبادات، مع أنها عبادة محضة؟

كان رسول الله ﷺ ينظر بعين اليقين والمعرفة إلى جلال الله وعظمته، وإلى تقصيره -بوصفه بشرًا- في أداء حق الله عليه، وحق شكره فكان كثير الاستغفار.

ولأن حق الله سبحانه وتعالى لا يمكن توفيته؛ منَّ الله علينا بالاستغفار من تقصيرنا في حق عظمته وجلاله سبحانه، ولأن الغفلة والسهو من طبع البشر، فلا يخلو عملنا من سهو أو نسيان أو انشغال قلب؛ لذا كان الاستغفار والتوبة سبيلين إلى جبر هذا النقص فضلًا منه سبحانه وإحسانًا.

***من الأخطاء في باب التوبة:** أن يؤخر المرء التوبة بعد المعصية، أو أن يغفل عن المعصية أصلًا فلا يستغفر ولا يتوب من غفلاته وعصيانه.*

نتيجة

إن استغفار المؤمن وتوبته من أعمال الخير على أوجه:

أحدها: أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها؛ وهذه توبة كان لنا في رسول الله أسوة حسنة فيها.

الثاني: أن يتوب مما كان يظنه حسنات وليس كذلك، كالوقوع في البدع.

الثالث: أن يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها، وأنها حصلتْ بقوَّته، وينسى فضل الله وإحسانه، وأنه المنعم بها.

(انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية، ١١/ ٦٨٧-٦٨٨).

لاحظ

نشاط إثرائي

ارجع إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة، واستخرج الآيات والأحاديث التي تحض على الاستغفار والتوبة عقب الطاعات والعبادات.

إثراء

قارن بين شخصين، أحدهما يقوم الليل، ويصوم النهار، ويرى نفسه خيرًا من أكثر أهل الأرض، وآخر يصلي فرضه ويؤدي حق الله عليه من الفرائض، وقليلاً من النوافل، لكنه يحسُّ التقصير من نفسه، ويسأل الله العفو والمغفرة، أيهما أقرب إلى الله؟ ولماذا؟ هل عندك أدلة على ما توصلت إليه؟

اليأس من التوبة عند تكرار الذنب:

وها هنا ثمة موضوع لابد أن تنتبه له، وهو من الأخطاء التي يقع فيها الناس في باب التوبة:

تأمَّل النصوص الآتية ثم أجب:

١. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه -تبارك وتعالى- قال: «أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ رب، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أيْ رب، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي، فليفعل ما شاء». [البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨)]

٢. عن الصحابي الجليل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خياركم كل مفتتن تواب -يعني كلما فُتِن بالدنيا ووقع في المعصية تاب- قيل فإذا عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب، قيل: حتى متى؟ قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور.

٣. قيل للتابعي الحسن البصري رحمه الله: ألا يستحيي أحدنا من ربه! يستغفر من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود؟ فقال: ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذا، فلا تَملُّوا من الاستغفار.

- ماذا تفهم من النصوص الماضية؟
- ما دور الشيطان في إغواء الإنسان قبل التوبة وبعدها؟
- أيهما أحب إلى الله بحسب فهمك للنصوص السابقة: من يذنب فيتوب ثم إذا عاد للذنب خجل من التوبة مرة أخرى، أم من يذنب فيتوب، ثم يذنب ويتوب لا تعمدًا للذنب ولا استهزاءً، بل تقصيرًا وغفلة؟

خلاصة

يحب الله -سبحانه وتعالى- عبادَه الذين كلما وقعت منهم زلةٌ، أحدثوا لها توبةً؛ ويقبل توبتهم لأنه -سبحانه- متصف بصفةَ الحلم والعفو، والجود والرحمة والكرم.

والذي يرتكب المعصية مرة بعد مرة: ذنبه مغفور في كل مرة إن أعقب معصيته بتوبة صادقة.

وهذه النصوص لا يُفهم منها التشجيع على المعاصي وارتكابها مرة بعد مرة، وأن يجعل المسلم رحمة الله تعالى وتوبة الله تعالى عليه سُلَّمًا للمعاصي، بل يفهم منها تشجيع العاصي على التوبة مرة بعد مرة، وألّا يدع وسوسة الشيطان تتلاعب به، فالأحاديث تُطمئن قلبَ المسلم الذي يريد أن يرجع إلى الله تعالى، وتقول له: باب الرحمن مفتوح، وعفوه أكبر من معصيتك، فلا تيأس من رحمة الله تعالى، وعُد إليه حتى يكون الشيطان هو المحسور الذي يُهلكه الاستغفار.

نشاط إثرائي

قد يقع أخ لك في المعصية عدة مرات لضعفه أو غلطه، فيظن أنّ التوبة لا يمكن أن تتكرر، وأن تكرارها استهزاء بالله، لأنه يقع في الخطيئة نفسها بعد أن يعاهد الله على عدم الرجوع إليها؛ فيقع في الحيرة أو اليأس.

اكتب عن ذلك مبيِّنًا خطأ هذا الاعتقاد، وشارك أصدقاءك ما كتبت بنشره في وسائل التواصل الاجتماعي.

لمن يكون الاعتراف بالذنب لتحصل على التوبة؟

اقرأ قول الله تعالى ثم أجب: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٠٢﴾ [التوبة ١٠٢].

- ماذا تفهم من الآية السابقة؟
- هل يشترط للتوبة الاعتراف والإقرار بالذنب؟
- هل يشترط في التوبة أن يعترف المذنب عند رجال الدين؟
- هل توجد واسطة في قبول التوبة بين الله وعباده؟

- الإسلام جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، دعاهم إلى عبودية الله وحده، وأعلمهم أن الله وحده بيده مقاليد الأمور، وهو الغفور اللطيف بعباده، الخبير بشؤونهم ومصالحهم في دنياهم ومعادهم، لذلك لم يجعل بينه وبينهم واسطة للوصول إليه. فإذا رفعت يديك بالدعاء -أينما كنت وكيفما توجهت- فأنت تناجي ربك دون وسيط، وليس بينك وبينه حاجب ولا بواب، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]؟ والله يقول: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق:١٦]، فلا حاجز بينك وبين الله سبحانه وتعالى، وفي أي وقت أردت أن تخاطبه وتدعوه وتسأله، فما عليك إلا التوجه إليه، فهو الذي خلقك، ويعلم حالك ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤].

- من عصى الله وأراد التوبة والإنابة، فلا يحتاج إلى الذهاب إلى شيخ، أو عالم، أو إمام ليخبره بمعصيته، ويعترف له بما اقترف من الذنوب، ثم يدفع كفارة الخطيئة، ليتسلم بعدها صك الغفران، وكأن هذا الشخص وسيط بين العباد وربهم. إنّ هذا ليس من الإسلام في شيء، فمن عصى ثم أراد أن يتوب، فما عليه إلا أن يُقِرَّ بذنبه أمام الله، ويبقي ستر الله عليه، فيتوب صادقًا منيبًا، فيتوب الله عليه. ألم تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: ١١٠]؟

- اللّه يحب من عباده الستر، فهو ستير يحب الستر، قال ﷺ: «إن اللّه عز وجل حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يحب الحياء والستر» [رواه أبو داود:٤٠١٢].

فمن ستره اللّه في معصية فلا ينبغي له أن يذهب فيفضح نفسه بين الناس، بل عليه أن يتوب فيما بينه وبين ربه، واللّه يغفر الذنوب جميعًا.

قال ﷺ: «أيُّها النَّاس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود اللّه، من أصاب من هذه القاذورات شيئًا، فليَسْتَتر بسِتْر اللّه». [موطأ مالك: ٥/ ١٢٠٥].

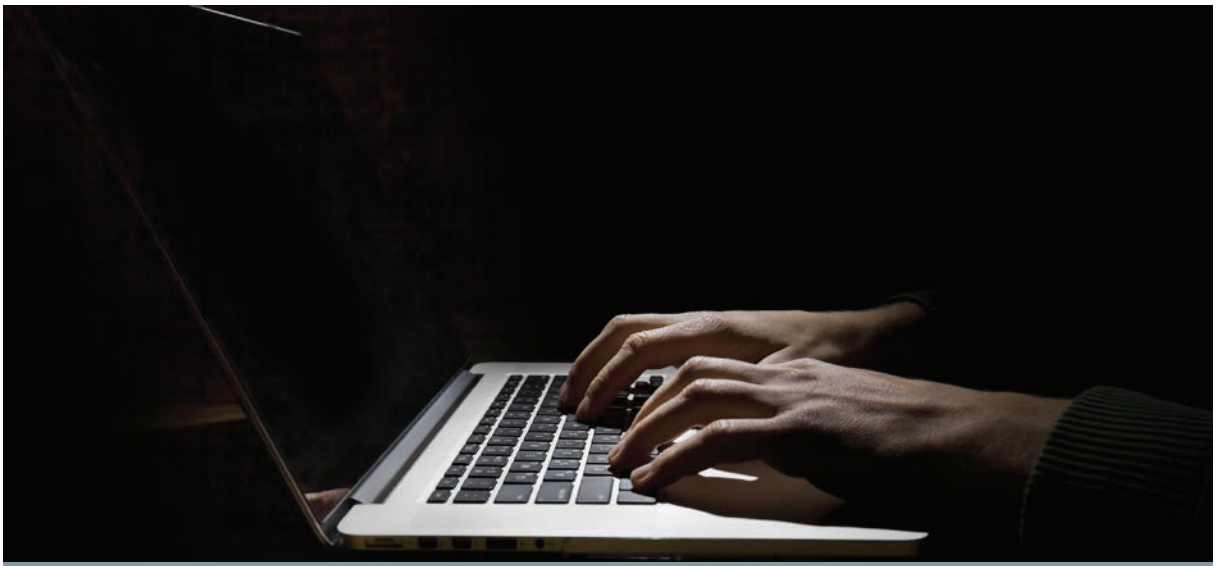

إن من أسوأ الأعمال أن يبيت المرء عاصيًا واللّه يستره، فيصبح ويكشف ستر اللّه عليه، وقد قال ﷺ: «كلُّ أمَّتي مُعَافًى إلا المجَاهرين، وإنَّ من المجَاهرة أن يعمل الرَّجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره اللّه عليه، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يَسْتُره ربُّه، ويصبح يكشف سِتْر اللّه عنه» [البخاري: ٦٠٦٩، ومسلم: ٢٩٩٠]، ويُخشى على هذا أن يكون بفعله هذا ينشر الفاحشة ويشجع الناس عليها، واللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

فليستر العبدُ نفسَه ما ستره اللّه، فذلك أدعى لنشر الفضيلة والخير في المجتمع، ومن فضح نفسه أو غيره فإنما ينشر الرذيلة، وعقوبة ذلك كبيرة؛ لأنه يسيء إلى المجتمع برمته، فيجاهر بما أمر اللّه به أن يستر رحمة من اللّه بعباده، وحتى لا يعيَّر الإنسان بعد التوبة، فكم من عاصٍ مقرٍّ بذنبه، معترف بغفلته وتقصيره، ينيب فيتوب فيما بينه وبين ربه، فلا تراه بين الناس إلا في رتبة الصِّدِّيقين، ولو فضح نفسه، أو جاهر بمعصية فإنه يبقى في أعين الناس ذلك العاصي، واللّه أرحم من أن يترك عبده بعد توبته يعيش في تبعات معصيته وغفلته وزلته.

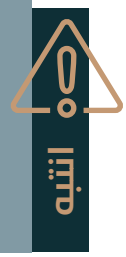

ناقش

في ضوء ما سبق ناقش المقولة الآتية مبيِّنًا رأيك فيها.

ليست التوبة في الإسلام مطلبًا صعبًا لا يصل إليها مبتغيها إلا بعد تعب ومشقة، أو اعتراف أمام أحد غير الله تعالى، بل إنها سهلة وميسرة، فبابها مفتوح في كل لحظة، يطرقه من يشاء ليستغفر ويتطهر، لا يطرده من رحمة الله طارد، ولا يقوم بينه وبين ربه وسيط، مهما أسرف على نفسه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

التقويم

١ هل يمكن أن يورِّث أحد خطيئته شخصًا آخر؟ ناقش ذلك.

٢ وضِّح معايير العدل الإلهي في ضوء حكم الإسلام في توريث الخطيئة.

٣ لماذا لا يتحمَّل إنسان تبعات عمل غيره؟

٤ متى يحاسَب الإنسان على أعماله؟ ما شروط ذلك؟

٥ ما أنواع التوبة؟

٦ ما شروط التوبة؟

٧ هل التوبة تسقط حق العباد وحق الله؟ علل ما تقول مع الأدلة.

٨ ما شرط التوبة الصادقة المتعلقة بحقوق الناس؟ وكيف التحلُّل من هذه المعصية؟

٩ لماذا كانت التوبة تسقط حق الله مع أنه أعظم، ولا تسقط حق العباد حتى يُرَدَّ إلى أصحابه؟ علِّل ما تذهب إليه.

١٠ أجب بصح أو خطأ وصحِّح الخطأ:

١. ( ) التوبة لا تكون إلا من معصية.

٢. ( ) التقصير في الطاعة يحتاج إلى استغفار وتوبة.

٣. ( ) التوبة والاستغفار بمعنًى واحد.

٤. ( ) الاستغفار والتوبة وظيفة العمر.

٥. ( ) يدرب المؤمن نفسه دومًا على التوبة والاستغفار مستحضرًا عظمة الله تعالى.

٦. ( ) من الذنوب ما لا يحتاج إلى توبة أو استغفار.

٧. ( ) لا شروط للتوبة، فمن نطق لسانه بالتوبة تاب الله عليه وغفر له.

طريق التوبة

أهداف المحور

يتوقع في نهاية المحور أن يكون القارئ قادرًا على أن:

- يكتشف طريق السعادة في الدنيا والآخرة.
- يوقن بأن من ترك شيئًا طاعة لله فإن الله يعوضه خيرًا منه.
- يستثمر ما يعينه على التوبة.
- يدرب نفسه على التوبة إذا ضعف ووقع في المعاصي.
- يستشعر أهمية التوبة وملازمتها للمسلم في كل أوقات حياته.
- يتعرف مدى حب الله للتوابين والمستغفرين.
- يستنبط أن التوبة علامة حب لله.

التوبة طريق السعادة

تدبَّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ناقش

- ما معنى التوابين؟
- ما معنى المتطهرين؟ (يمكن الرجوع إلى كتاب روح الطهارة من هذه السلسلة).
- هل تدرك الفرق بين التائب والتواب؟
- هل فكرت يومًا في طريق السعادة في هذه الدنيا، وسبيل النجاة في الآخرة؟ ما موقع التوبة من ذلك؟

لعلك تعلم

السعادة الحقيقية في الدنيا هي التكيف والرضا الداخلي الذي يشعر به المؤمن بقضاء الله وقدره وبما قسمه الله تعالى له، حتى مع وجود البلاء الذي هو لازم للتكليف والامتحان والاختبار في الدنيا.

وأما السعادة في الآخرة فهي السعادة الحقيقية في الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ السعادة التي لا تكليف فيها ولا نصب ولا مشقة ولا اختبار ولا امتحان.

لاحظ

التائب في اللغة العربية: هو من تاب من ذنبه ولو مرة.
أما التوَّاب: فهو الكثير التوبة والإنابة إلى الله، وجمعه توابون وتوابين.
فهذا يحبه الله، ويحب افتقاره إلى ربه وانكساره أمامه وإقراره بضعفه وعجزه وخطئه، فيعطيه ما يسأله وزيادة.

نتيجة

إنَّ التوبة تثمر للعبد محبةً خاصة من الله تعالى، لا تحصل دون التوبة؛ لأن التوبة شرط ومدخل لتطهير النفس، الذي هو نوع من الطهارة التي حثَّ عليها الإسلام، والمحبة الحاصلة للعبد بالتوبة لا تُنال بغيرها؛ لأن التائب يكون في حال من الخوف والخشية، والانكسار والتذلل لله، والتضرع إليه بأن يقبل الله تعالى توبته، ويغفر زلَّته، ويتجاوز عن جرمه وخطيئته، وهذه الأحوال هي من أفضل أحوال العبد التي يُحبها الله عز وجل.

تأمَّل هذا الحديث الشريف: عن النبي ﷺ قال: «كيف تقولون بفرح رجل، انفلتت منه راحلته تجر زِمَامَهَا، بِأَرْضٍ قَفْرٍ، ليس بها طعام ولا شراب، وعليها له طعام وشراب، فطلبها حتى شق عليه، ثم مرت بجِذْلِ شَجرة فتعلق زمامها، فوجدها متعلقة به؟»، قلنا: "شديدًا يا رسول الله"، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لله أشد فرحًا بتوبة عبده، من الرجل براحلته» [مسلم: ٢٧٤٧].

نشاط تخيلي

يواجه الإنسان أحيانًا مشكلة تتركه في ضيق شديد وكرب، فيتصور أنه لا ينفرج أبدًا، وبعد حين يجيء الفرج، وتُحَلُّ المشكلة من حيث لا يظن أحد أن يأتي الحل.

- ماذا يفعل أحدنا في هذا الموقف؟
- هل حدثت لك أو لأحد تعرفه قصة مشابهة؟
- اشرح الموقف والمشاعر التي اعترتك ومقدار فرحك بالفرج؟
- تفكَّر الآن في قول الرسول ﷺ: «أما والله لله أشد فرحا بتوبة عبده، من الرجل براحلته». ماذا تستنتج من هذا الحديث؟ وما الشعور الذي ينتابك الآن وأنت تتفكر في الحديث.

إثراء

حلِّل مضمون القول الآتي، وحوله إلى أفكار.

قال العالم ابن تيمية رحمه الله: وهذا المَثل الذي ضربه النبي ﷺ يبيِّن محبة الله وفرحه بتوبة العبد، فإن الإنسان إذا فقَدَ الدابةَ التي عليها طعامُه وشرابه في الأرض المهلكة، فإنه يحصل عنده ما الله به عليم من التأذِّي، من جهة فقْد الطعام والشراب والمركب، وكون الأرض صحراء لا يمكنه الخلاصُ منها. وإذا طلب الراحلة فلم يجدها، يئس واطمأن إلى الموت، وإذا استيقظ فوجدها كان عنده من الفرح ما لا يمكن التعبير عنه، بوجود ما يحبه ويرضاه، بعد الفقد المنافي لذلك، وهذا يبيِّن محبة الله للتوبة المتضمنة للإيمان والعمل الصالح. [منهاج السنة ٥/ ٣٢٤، بتصرف]

خلاصة

التوبة طريق السعادة؛ لأنها تخلص الإنسان من أدران نفسه وآثامها، وتعيده إلى موقعه الصحيح من ربه تبارك وتعالى، متضرعًا إليه، خائفًا منه، راجيًا رحمته، مراقبًا له، فإذا بالإنسان المؤمن ينتابه الشعور بتكرم الله عليه، يتجاوز عن خطأ عبده، ويقبله على تقصيره، وهو عز وجل أشد فرحًا بتوبة عبده؛ لحبه لعبده، يتكرر ذلك كلما ضعف فوقع في الذنب، فشعر بتقصيره، فأناب، يسأل الله عفوه ومغفرته، مؤمنًا بحب الله تعالى له وقبوله إياه.

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

تفكَّر في الحديث الشريف:

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ» (رواه أحمد بإسناد صحيح: ٢٣٠٧٣).

- ماذا تفهم من الحديث الشريف؟
- لِمَ ترك المهاجرون من الصحابة الكرام ديارهم وأوطانهم، مع أنها كانت محببة إليهم؟ وبماذا عوضهم الله تعالى؟
- هل سمعت عن إنسان ترك لله تعالى شيئًا ثم لم يعوضه الله بما هو خير منه؟
- هل من قصة تعرفها عن إنسان عوضه الله بأكثر مما كان يحلم، بعد أن ترك شيئًا يحبه إرضاء لله؟

ناقش

قال العالم ابن القيم رحمه الله:

وقولهم: "من ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه" حق، والعوض أنواع مختلفة؛ وأجلّ ما يعوض به: الأنس بالله ومحبته، وطمأنينة القلب به، وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى " كتاب الفوائد (ص١٠٧).

وقد يكون هذا التعويض في الآخرة، فإن من ترك شيئًا لله عز وجل أثابه الله، وثواب الآخرة أعظم من الدنيا كلها مهما عظمت، فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي شيئًا مما في الجنة.

خلاصة

إن الله تعالى يعوض من يعمل أو يترك لأجله طالبًا رضاه بخير مما ضحى به من وقت ومال وشهوة، وبخير مما تركه، وهذا التعويض لا يلزم أن يكون شيئًا محسوسًا من مال أو نحوه، بل قد يكون درجة عالية من الإيمان واليقين والرضا، يمنحها الله تعالى عبدَه؛ فما دام العبد قد ترك شيئًا مما نهاه الله عنه -لا يتركه إلا لوجه الله عز وجل- فالعوض إليه قادم، وهذا وعد من الله، ولن يخلف الله وعده.

أخبر الله سبحانه وتعالى أن من اتقاه، بترك ما لا يحل له، رزقه الله من حيث لا يحتسب، فلو اتقى اللهَ السارقُ، وتركَ -لله- سرقة المال المعصوم: لآتاه الله مثله، أو خيرًا منه، حلالًا، وهذا التبديل والتعويض قد يكون بشيء من جنس الشيء المتروك، وقد يكون من غير جنسه.

إثراء

عن معاذ بن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غَيْظًا، وهو قادر على أن يُنْفِذَهُ؛ دعاه الله تبارك وتعالى على رؤوس الخلائق حتى يُخَيِّرَه من أي الحور شاء» رواه أحمد (١٥٦٣٧)، وأبو داود (٤٧٧٩)، والترمذي (٢١٥٣)، وابن ماجه (٤١٧٦).

لاحظ

أهل التقوى والبصيرة لا يأبهون بالعِوَض الذي ينالونه في الدنيا، بل كل همّهم ومنتهى آمالهم أن ينالوا العوض في الآخرة.

ولك أن تسأل هل ترك المعاصي والشهوات المحرمة يدخل في باب من ترك شيئًا لله؟

تدبَّر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٢-٢٤]

- ما أنواع الصبر؟ (يمكنك الاستعانة بكتاب الصبر واليقين من هذه السلسلة).
- هل يدخل الصبر على طلب العلم وإقامة أوامر الله في مُسَمَّى الصبر؟
- هل يدخل الصبر عن المعصية في أقسام الصبر؟
- هل يحتاج ترك المعصية إلى مجاهدة ومصابرة؟
- ما جزاء الصابرين؟
- هل ترى أن الثواب الذي بينته الآيات كان على قدر تلك المصابرة، أم أنه أعظم؟

لاحظ

إن الصبر على ترك المعصية ابتغاء رضوان الله تعالى ثوابه عظيم، وهو جنات خلد عرضها السماوات والأرض؛ بل إن الجزاء قد يدركه العبد في الدنيا قبل الآخرة، فيحصل له الحسنيان.

والعاقل من يصبر على معصية تفوت لذتها بعد انتهائها بلحظات، مقابل ثواب لا انقطاع له. وما حرَّم الله من شيء على عباده إلا فتح لهم باب حلال يستعيضون منه ما هو أنقى وأتقى.

تدبَّر قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧].

- ما سبب تمكين يوسف عليه السلام في الأرض وجعله وزيرًا للمالية والخزانة عند الملك؟
- كيف وصل يوسف عليه السلام إلى تلك المكانة؟ ولم؟
- هل هذا الفضل خاص بيوسف عليه السلام، أم أنه يشمل كل من ترك معصية لله؟

لاحظ

إن تمكين يوسف عليه السلام كان بسبب صبره على الابتلاء، وتركه للمعصية التي نَفَر منها، فقد زيَّنت له امرأة العزيز المعصية، بل أراد ذلك من مَعها من صديقاتها، فتذكَّر الخوف من الله وتوقَّدت في نفسه جذوة الإيمان والتقوى، فصبر على ترك المعصية، وهو في عنفوان شبابه؛ حتى إنَّ جزاءه كان الحبس بضع سنين، لكن الله عوَّضه بمنصب رفيع في الدنيا، وتمكَّن من خزائن مصر وخيراتها، هذا مع أجره الذي لا يعلمه إلا الله في الآخرة، وهذا قانون سارٍ على كل من ترك شيئًا لله ابتغاء رضوانه ووجهه الكريم.

نشاط إثرائي

هل حدث أن تركت أمرًا أو معصية ابتغاء مرضاة الله تعالى فعوَّضك الله خيرًا مما تركت؟

هل سمعت من أحد أصدقائك، أو قرأت قصة مشابهة لقصة يوسف عليه السلام عن رجل ترك معصية خوفًا من الله، فعوَّضه الله خيرًا منها ولو بعد حين.

ناقش ذلك مع زملائك، وسجل القصة، وانشرها لتعم الفائدة بين إخوانك، وتشجعهم على ترك المعصية.

رُبَّ لذَّةِ ساعةٍ تُورِثُ ندمَ العمرِ كلِّه،
ورُبَّ صبرِ ساعةٍ يُورِثُ فوزَ العمرِ كلِّه.

التوبة أهم وظائف الحياة

تستمر التوبة باستمرار الحياة عند المؤمن؛ لشعوره بنعم الله عليه وتقصيره في شكره وعبادته.

تدبَّر الآيتين الآتيتين:

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ (النور: ٣١).

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ (التحريم: ٨).

- ماذا تفهم من الآيتين السابقتين؟
- لماذا أمر الله المؤمنين بالتوبة؟
- بِمَ يوحي لك كون الأمر بالتوبة موجَّهًا إلى المؤمنين دون غيرهم؟
- هل تستلزم التوبة أن تسبقها معصية؟ أم أن التوبة وظيفة العبد المؤمن لأنها من العبادات؟
- هل الأمر بالتوبة مقصور على زمان أو حال؟
- لماذا ورد لفظ " جَمِيعًا " مع أن لفظ " الْمُؤْمِنُونَ" عام يشملهم كلهم؟
- ما الفضائل التي ذكرتها الآيتان الكريمتان للتوبة؟
- ما نتيجة التوبة؟ وما آثارها برأيك؟

ناقش

تأمَّل قول النبي ﷺ :

«وَاللَّهِ، إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» [أخرجه البخاري: ٦٣٠٧].

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَوْمِ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ» [أخرجه مسلم: ٦٨٠٤].

- هل تساءلت يومًا عن سبب استغفار النبي ﷺ وتوبته في كل أوقاته، وهو من غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو المعصوم من الذنوب؟!

لاحظ

إن الإنسان لا يَسْلَم من المعاصي أبدًا، وهذا نقص لا يَسْلَم منه أحدٌ من البشر، فما من عبد إلا وقد اقترف إثمًا، أو فعل ذنبًا، أو غفل عن ذكر ربه وشكر نعمته، وإنما يتفاوت الناس في مقادير المعاصي والغفلات، أما الأصل فباقٍ.

"فكل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح، فلا يخلو عن الهمِّ بالذنب بالقلب، فإن خلا في بعض الأحوال عن الهم، فلا يخلو عن وساوس الشيطان، بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه، فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، وله أسباب، والمراد بالتوبة: الرجوع، ولا يُتصوَّر الخُلُوَّ في حق آدمي عن هذا النقص، وإنما يتفاوتون في المقادير، أما الأصل فلا بد منه". (الإحياء للغزالي ٤/ ٩- ١٠).

نتيجة

قد تكون التوبة والاستغفار من تقصير العبد في الحسنات والطاعات، وتقصيره في معرفة حق الله عليه، وأداء هذا الحق، والشكر على نعمه كلها، وهذه توبة كان لنا في رسول الله أسوة حسنة فيها، وكان ملازمًا لها طول حياته ﷺ.

ونحن أحرى بهذه التوبة، كيف لا، وهو ﷺ من غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولم يتوانَ عن الالتجاء إلى الله بالتوبة والاستغفار حتى عقب العبادات كالصلاة والصيام والحج.

وقد يكون العبد مستغرقًا في الذنوب، صغيرة أو كبيرة، قليلة أو كثيرة، بالجوارح أو بالغفلة عن حق الله. فإذن كل إنسان مفتقر إلى التوبة، فلا يُتصوَّر أن يستغني عنها أحد من البشر، فهي من أجلِّ الطاعات وأوجبها على المؤمنين، وهي خُلُق الأنبياء والمرسلين، ودأبهم.

على ضوء ما سبق اقرأ المقولة الآتية ثم أجب:

يقول الإمام القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) عند تفسيره آية: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: ٣١]: "إنَّه لا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة، والمعنى فيها: وتوبوا إلى الله؛ فإنكم لا تخلون من سهوٍ وتقصير في أداء حقوق الله - تعالى - فلا تتركوا التوبة في كل حال".

اشرح المقصود بقول القرطبي بأسلوبك، مبيِّنًا أهمية التوبة في كل حال من أحوال المسلم، وسبب هذه التوبة.

إثراء

نشاط

- استخرج من القرآن الكريم الآيات التي تحض على التوبة وملازمتها، واذكر عقب أي عبادة وردت.
- ارجع إلى كتب السنة، واستخرج منها بعض الأحاديث التي تَحُثُّ على التوبة والتزام المداومة عليها، وسجلها في دفترك.
- كيف تُعرِّف إخوانك أهمية التوبة وضرورة التزامهم بها في كل أوقاتهم؟ شارك أصدقاءك عبر وسائل التواصل الاجتماعي ما تعرفه عن الموضوع.

حبُّ اللّٰه تعالى للتائبين

تأمَّل قول النبي ﷺ في الحديث: «لَلّه أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاةٍ فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابُه فأَيِسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلها قد أَيِسَ من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخِطامها، ثم قال من شدة الفرح: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك" أخطأ من شدة الفرح» [البخاري: ٦٣٠٩، ومسلم: ٢٧٤٧].

- ماذا تستنبط من الحديث السابق؟
- ماذا تفهم من الخطأ الذي وقع فيه ذلك العبد حين وجد راحلته؟
- كيف وصف النبي ﷺ مقدار فرحة اللّٰه تعالى بتوبة عبده؟
- لماذا يريد اللّٰه من عباده أن يتوبوا؟ وهل خلقهم ليعذبهم أم ليرحمهم؟ ما دليلك على ذلك؟
- هل يحتاج اللّٰه إلى عباده؛ فهو لذلك يُرَغِّبُهم في العودة إليه؟

لاحظ

إن حب الله تعالى لعباده التائبين وفرحه بعودتهم إليه أشد من فرح ذلك الرجل الذي جلس ينتظر الموت، ثم جاءه الفرج، فأي فرحة تعدل هذه الفرحة؟ فعلى المؤمن ألا ينسى ذلك مهما عظم ذنبه، وعليه أنْ يعلم أنَّ سعة رحمة الله تعالى لعباده العاصين التائبين لا يمكن أن يدركها بشر.

من أسماء الله: الرحيم التواب، وهو الصمد الذي لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه، والخلق كلهم محتاجون إليه، فقراء إلى فضله وغناه.

نتيجة

الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده، ولطيف بهم، وهذه الدنيا دار امتحان وابتلاء، والله يعلم من عباده ضعفهم، ووقوعهم في الخطأ والمعاصي، فهم مجبولون على النسيان والغفلة والغلط، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، لكنه سبحانه وتعالى يحب عباده الأوابين الذين يتوبون بعد معصيتهم، ويعلمون أن لهم ربًّا رؤوفًا يغفر لمن طرق بابه، وحاشا لله أن يردّهم خائبين، أليس هو القائل سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠].

فربُّك أيها العبد لا يبالي بعظمِ ذنبك ما دمت قد رجعت إليه تائبًا ومنيبًا.

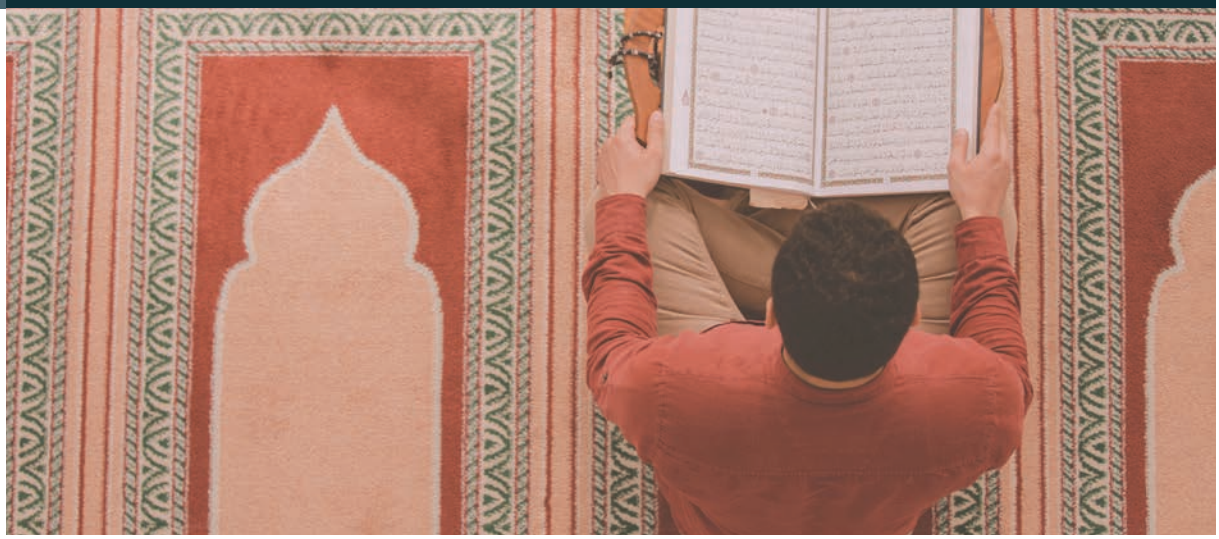

ناقش

في ضوء ما سبق ناقش المقولة الآتية مبيِّنًا رأيك فيها

يقول العالم ابن القيم: "والمقصود أن هذا الفرحَ من الله - عز وجل - بتوبة عبده، دليلٌ على عظم قدر التوبة، وأنها من أجلِّ الطاعات وأوجبها على المؤمنين، وهو فرح مُحسنٍ، بَرٍّ، لطيفٍ، جوادٍ، غنيٍّ، لا فرح محتاجٍ إلى حصول ما يُفرحُ به، مستكمِل به، مستفيد له من غيره، فهو عين الكمال».

[طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/ ٥٢٥].

تفكَّر في قول النبي ﷺ في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أُبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بِقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة». [الترمذي: ٣٥٤٠]

- هل تَنقص توبة الله على عبده ومغفرته له من ملك الله شيئًا؟
- قارن بين العبد التوَّاب الذي يرجع فور خطئه إلى الله معترفًا بتقصيره وراجيًا رحمة ربه، والعبد الذي يعصي ويهمل التوبة، وهو يظن أن الله لن يغفر له. أيهما أرجى لرحمة الله وفضله وعفوه؟ اشرح ذلك في بضعة أسطر.

إثراء

التوبة وظيفة العمر، وهي العبادة المستمرة الملازمة للمسلم في كل حين، ملازَمة نفسه البشرية التي بين جنبيه له، يخطئ فيتوب وينيب، ويتخذ من خطئه عبرة وعظة، ومن معصيته دليلًا على ضعفه وحاجته إلى ربه المتصف بالكمال والجلال، فهو الذي يرحم العصاة ويشفق على المخطئين، فيصل بالتوبة إلى درجة محبة الله، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وحينها يقصد العبد وجه الله ويتقرب منه، فيستمر بتوبته في جميع أحواله.

الخلاصة

التقويم

١ لماذا يفرح الله بتوبة عبده؟ وما مقدار تلك الفرحة؟

٢ ما ثواب من صبر على ترك المعصية؟

٣ لماذا كان للصبر على ترك المعصية هذا الثواب العظيم؟

٤ أجب بصح أو خطأ وصحِّح الخطأ:

١. ( ) سعادة الدنيا لها نفس معنى سعادة الآخرة.

٢. ( ) للتوبة أثرها المتميز في سعادة الإنسان.

٣. ( ) سعادة الآخرة نعيم لا نصب ولا شقاء فيه.

٤. ( ) يعوض الله تعالى من ترك معصيته بما هو خير له.

٥. ( ) التوبة تكون فقط بعد المعصية والذنوب.

٦. ( ) هناك ذنوب لا يمكن مغفرتها منها: الإشراك بالله.

٥ لماذا قرن الله بين التوَّابين والمتطهِّرين في محبته؟

٦ لماذا يجب على المؤمن أن يتوب إلى الله في كل وقت؟

٧ اذكر مثالًا واحدًا على مواضع الاستغفار عقب العبادات، واشرح الغاية من ذلك.

٨ اذكر دليلًا يبيِّن حب الله للتائبين من عباده.

٩ لماذا يحب الله عباده التائبين؟

١٠ ماذا يجب على المسلم أن يعتقد إذا وقع في المعصية؟ وماذا عليه أن يفعل إثر معصيته؟

آثار التوبة

أهداف المحور

يتوقع في نهاية المحور أن يكون القارئ قادرًا على أن:

- يرجع عما يكره الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا.
- يُكوِّن أسرة نقية توابة.
- يسهم في سمو مجتمعه عن طريق التوبة.
- يستنبط قواعد للتعامل مع إخوانه المسلمين في حال عصيانهم لله.
- يكتشف آثار حب الله للتوابين والمتطهرين.

التوبة طهارة للإنسان

تدبر النصوص الآتية ثم أجب:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة». [مسلم: ٢٧٠٢]

- ماذا تفهم من النصوص السابقة؟
- ما الفكرة المشتركة بين النصوص؟
- ما صفات المؤمنين، وما صفات الفاسقين؟
- ما طريق الخوف من الله تعالى؟ وكيف يمكن للقلوب أن تبقى خاشعة؟
- ما علامة قسوة القلب؟ ولماذا وصف الله أهل الكتاب والمشركين بذلك؟
- ما الشيء الذي يغطي القلب ويجعله قاسيًا؟
- لماذا كان رسول الله ﷺ يستغفر كثيرًا؟

- هل ترى أن التوبة والاستغفار سبيل إلى السمو والصفاء وطهارة القلب؟ دلِّل على ذلك من النصوص السابقة.

- كيف يَطهُر قلبك وتُشرق روحك بعد ظلام المعصية؟

لاحظ

كان رسول الله ﷺ مداومًا على الذِّكر، واستحضار عظمة الله وفضله في كل حركة وسكنة، وتجنب ما يتغشَّى القلب من الغفلات والفترات، فإذا فتر أو غفل عدَّ ذلك ذنبًا واستغفر منه. وقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: "إنا كنا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم» وفي رواية: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور». [أبو داود: ١٥١٦، والترمذي: ٢٤٣٤].

لا خير في حسن ظاهر وفساد باطن ، ارجع إلى كتاب «روح الطهارة» من هذه السلسلة، واقرأ فيه عن الطهارة المعنوية .

نتيجة

- **التوبة تعني الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، والقيام بحقوق الرب، وتدارك ما أمكن. كما أنها تعني الرجوع عمّا يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه الله ظاهرًا وباطنًا، والرجوع عن معصية الله إلى طاعته، كما تعني التوبة من الغفلة عن ذكر الله، والتفكر في آلائه وإنعامه. وكل ذلك يؤدي إلى اطمئنان النفس وإشراق الروح؛ لانتفاء الذنوب المغطية للقلوب، وتحقق صلة التائب بالله علام الغيوب.**

- **إن العبد عند وقوعه في الغفلة والخطأ يجعل للشيطان عليه سبيلًا قد يأتيه منه، فيعظم له ذنبه، ويسعى به إلى اليأس من روح الله ورحمته وعفوه، فيزين له الاستمرار في المعصية حتى يسوَّد قلبه، وتيأس نفسه، ويحجب عقله بالأباطيل والأوهام. فإذا عاد إلى الله في لحظة، وتاب وأناب، زالت عنه تلك الحُجُب، فأشرقت نفسه، وأضاء عقله بنور المحبة، واطمأن قلبه ببرد اليقين بعفو الله وسعة رحمته وفضله.**

أسرةٌ نقيةٌ ومجتمعٌ سامٍ

تدبَّر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّور: ٣١].

- ماذا تستنبط من الآية السابقة؟
- لماذا خاطب الله المؤمنين كافة، دون تمييز ولا تفريق؟
- هل الفلاح مقتصر على النجاح في الآخرة أم أنه يشمل الدنيا والآخرة؟ اذكر أدلة تدعم رأيك.
- ماذا يحدث لو جاهر العصاة بمعصيتهم في المجتمع؟ ما أثر ذلك عبر الأجيال؟

نشاط إثرائي

- **ابحث علاقة تراكم المعاصي بالتطبّع والاعتياد على الانحراف، وتشكيل شخصية إنسانية معقَّدة ومريضة ومشوَّهة الفطرة.**
- **اذكر في بحثك أمثلة واقعية لعصاة من غير المسلمين تشوَّهت فِطَرُهم، وأوضح فيه إلى أي درك قد وصلوا.**
- **اذكر أمثلة عمن تاب وأسلم وأصلح سيرته ومسيرته.**
- **انشر بحثك.**

نتيجة

ينبغي للمجتمع أن يكون كالجسد الواحد يشد بعضه بعضًا، ويسهر بعضه على راحة بعضه، ويبدأ المجتمع من الفرد في الأسرة الصغيرة، وينتهي بالمجتمع كله كأنه أسرة كبيرة لكل الأفراد؛ لذا كانت الدعوة إلى طريق الخير لا تَخصّ شخصًا دون آخر، بل إن عمل الخير واجب على كل مسلم، واجتناب الشر فرض على كل فرد في المجتمع، فبناء الأسرة المنيبة التقية هو السبيل الأوحد لبناء المجتمع المترابط المفلح. والدعوة إلى الطاعة والإنابة إلى الله، هي دعوة إلى التوبة من المعاصي والتقصير عن أوامر الله، وهي رجوع إلى الله، ومفارقة لصراط المغضوب عليهم والضالين، وهي صراط الذين أنعم الله عليهم وجعلهم من المفلحين في الدنيا والآخرة.

فكر ثم ناقش

قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾- إلى قوله- ﴿فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة:٧٨- ٨١]، ثم قال: «كلا، والله لتأمرُنَّ بالمعروف، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، ولتأْخُذُنَّ على يدِ الظالم، ولَتَأْطِرُنَّهُ على الحقّ أطرا، ولَتَقْصُرُنَّهُ على الحقّ قصرًا، أو لَيَضْرِبَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم». [أبو داود: ٤٣٣٦].

- لماذا استحق بنو إسرائيل لعنة الله وعذابه؟
- ما مآل المجتمع الذي لا ينصح بعضه بعضًا، وما حال الأسرة التي لا يتربى أفرادها على التناصح والتعاون على البر والتقوى؟
- ما الآليات التي تؤكد تعاون المجتمع ومسؤولية الأفراد في الحثِّ على التوبة والنهي عن المعصية؟
- ما ضرورة هذه الآليات بين الأفراد في الأسرة الواحدة؟

لاحظ

كان لعنُ بني إسرائيل على لسان أنبيائهم، وتبرؤهم منهم ومن أفعالهم بسبب تعاونهم على المعصية والعدوان، وتجنبهم طريق مرضاة الله والتوبة من معاصيهم وكبائرهم، فكان لهم الخزي في الدنيا والآخرة، وهذا مصير من شابههم في أفعالهم.

نتيجة

مسؤولية التناهي عن المنكر لا تتعلق بفرد دون آخر؛ بل تشمل الجميع، فالأب (مثلًا) في أسرته يربي أولاده التربية الصالحة على الطاعة وتعظيم أمر الله، وينهاهم عن المعصية، ويحضهم على التوبة والإنابة، كي لا يكون أبناؤه من بعده كمن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، وكل من رأى في أهله أو أسرته منكرًا عليه أن يغيره، ويدعوهم بالحسنى إلى التوبة والعودة إلى طريق الخير والفلاح.

تدبَّر قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقد قال العلماء أن معناها:

يا أيها المؤمنون عليكم أنفسكم، كمِّلوها بالعلم والعمل، وأصلحوها بالقرآن وآداب السُّنَّة النَّبوية، وانظروا فيما يقرّبها إلى الله تعالى، حتى تكون في رفقة الأنبياء والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، وبعد هذا لا يضرُّكم من ضلَّ إذا اهتديتم، فلا يضرُّكم شيء إذا قمتم بواجب الإرشاد والنُّصح، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ثم إلى الله المرجع والمآب، وسيجازي كل إنسان على عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

وجملة ما قرَّره أهل العلم في هذا: أن النُّصحَ أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُتَعيِّن إن رُجِيَ القبول، أو رُجِيَ ردُّ المظالم، ما لم يَخَفِ المرء ضررًا يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين بسبب نصحه، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم بحكم واجب الوقوف عنده.

وقد فهم بعضُ الناس هذه الآية خطأً في عهد أبي بكر الصِّدِّيق، وتأوَّلوها: أنه لا يلزم معها نصح ولا إرشاد ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر.

فصعد أبو بكر المنبر وقال:

أيها الناس، لا تغتروا بقول الله: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ فيقول أحدكم: عليَّ نفسي! لقد سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متَّبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أيامًا، الصَّابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهنَّ أجر خمسين رجلًا، يعملون كعملكم». وفي رواية: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلًا منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم» [قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح: ٣٠٥٨].

إثراء

لما جاء الصحابة بعاصٍ شرب الخمر فدعا عليه أصحابه قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا عونَ الشَّيطان على أخيكم» [البخاري: ٦٧٧٧]. وفي رواية صحيحة قال ﷺ: «.. ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه». [البيهقي: ١٧٩٥٠].

ناقش الحديث مع مجموعة من أصدقائك، واستنبطوا قواعد للتعامل مع الغافلين والعصاة من المسلمين.

آثار حب الله للتائبين

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال عز من قائل: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة: ١٠٤].

- لماذا وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه التواب الغفار الرحيم؟
- بم يشعرك قبول الله تعالى لعباده في كل وقت مهما أخطؤوا دون صد أو إعراض عنهم؟
- ما ثمرة التوبة والإنابة إلى الله كما وردت في الآيات الكريمة؟

نتيجة

إن قبول الله تعالى توبة عباده وعفوه عنهم، وعدم تركهم يعيشون في رعب من معاصيهم وآثامهم، هو إكرام منه سبحانه، ودليل على محبته لعباده، وأنه لم يخلقهم ليعذبهم؛ بل ليتوب على مسيئهم، ويكرم طائعهم، وهو سبحانه يتفضل عليهم في كل وقت بقبول عودتهم إليه، وإقبالهم بكليتهم عليه؛ فهو يحب عباده التوابين، ويغفر لهم، ويهديهم سبيل الفلاح في دنياهم وآخرتهم.

ولعلك تسأل عن بقية آثار حب الله للتائبين وحبهم له فاقرأ ثم استنتج:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣].

وقال تعالى مخبرًا عن نوح عليه السلام قوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

وقال سبحانه مخبرًا عن هود عليه السلام قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢].

- ماذا رتب الله على التوبة والاستغفار من آثار على الفرد والمجتمع، كما يتضح معك من الآيات الكريمة؟

إن من آثار محبة الله للتائبين المستغفرين العائدين لمنهجه وتعاليمه، أنه يمتعهم المتاع الحسن في الدنيا؛ بما يتبعه من نزول الغيث المدرار، وحصول البركة في الأرزاق والثمار، والإمداد بالأموال والبنين، وحصول القوة والعزة والتمكين.

أما آثار محبة التائبين لله فمنها: أنهم أقلعوا عن ذنوبهم وذكروا محبوبهم، وكلما تذكروا تقصيرهم أورثهم ذلك ذلة بين يديه، ودعاء إليه ورجاء لمغفرته وعفوه.

إثراء

ارجع إلى كتب التفسير شارحًا الآيات السابقة، ومبيِّنًا آثار التوبة، ومحبة الله لعباده حين يعودون إليه.

التقويم

١ أجب بصح أو خطأ وصحِّح الخطأ:

١. ( ) لا شأن لك بالناس مهما فعلوا من عصيان أو كفر أو شرك.

٢. ( ) لتصفو نفسك بعد الذنب؛ يجب أن تقر بذنبك أمام عالم أو شيخ.

٣. ( ) يكفي العبد أن يتوب إلى الله من ذنبه، ويقر بخطئه بين يديه، ومن سَتره الله فليستتر، والله غفور رحيم.

٤. ( ) من طبيعة البشر أنهم يغفلون ولا يخطؤون.

٥. ( ) إن من وقع في الغفلة فأناب بصدق، فتح الله له بابًا يدخله لتشرق به روحه وتسمو به نفسه، وقَبِله عنده في التائبين المنيبين.

٢ علل:

١. التوبة والإنابة واجبة كل وقت.

٢. التوبة موجبة لمحبة اللّٰه لعبده التائب.

٣. الغفلة طريق للشيطان، قد يدخل إلى العبد منه، فيزين له الشهوات.

٤. التوبة سبب في طهارة النفس واطمئنان القلب.

٥. التوبة والإنابة سبب في تماسك الأسرة وبناء المجتمع الصالح.

٣ كيف يمكن للعبد أن يرى آثار محبة الله له؟

٤ كيف يكون العبد محبًّا لله؟ وما دليل هذه المحبة؟

٥ هل المعصية تعني أن العبد لا يحب الله؟ (مفتاح الجواب في حديث البخاري: ٦٧٨٠).

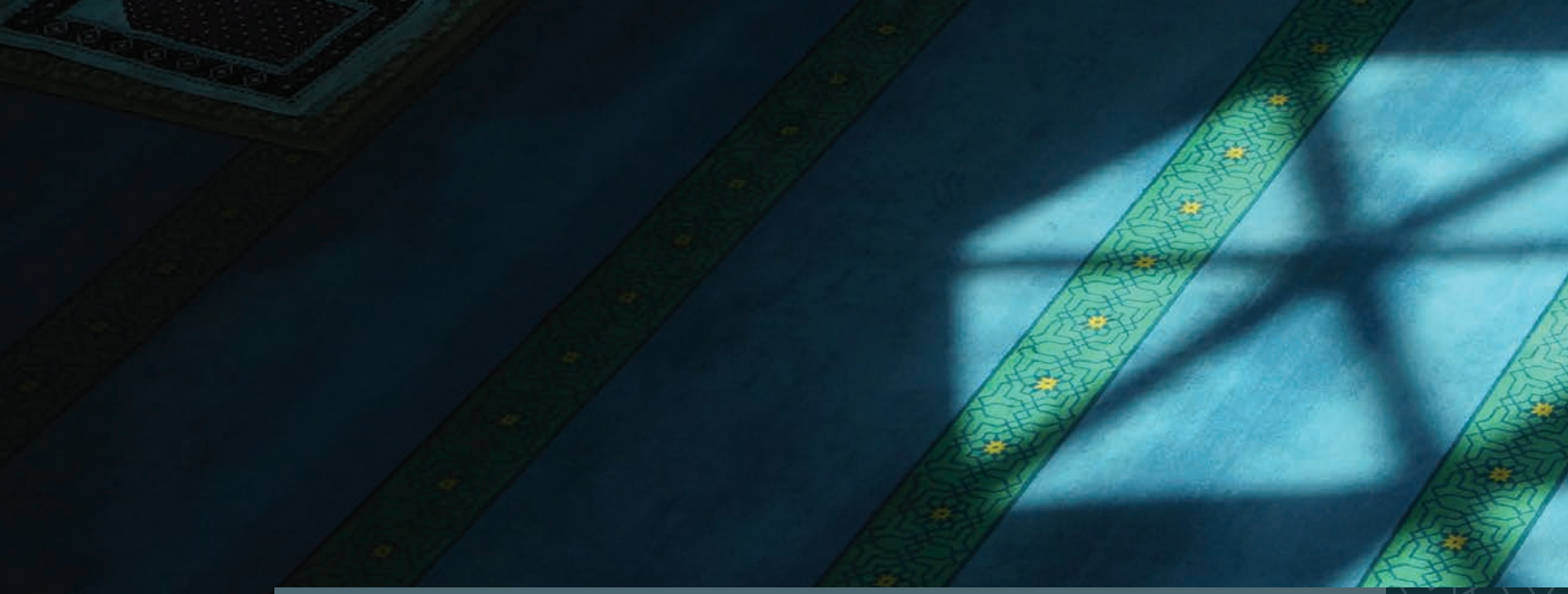

من قصص التائبين

أهداف المحور

يتوقع في نهاية المحور أن يكون القارئ قادرًا على أن:

- يروي نماذج من قصص التائبين.
- يستلهم من قصص التائبين وأحوالهم ما ينفعه في حياته.

تمهيد

تساءلتُ: هل أذنب أحد الصحابة ثم استغفر وتاب؛ فتاب الله عليه؟

فوجدت -بعد البحث في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ- أن الجواب نعم، فالصحابة بشر يصيبون ويخطئون، وإن كان رسول الله ﷺ بينهم، فهم ليسوا معصومين.

فلنستعرض معًا قصتين من حياة الصحابة، إحداهما لكعب بن مالك، والأخرى لأبي لبابة رضي الله عنهما، ثم نتبعهما بقصة توبة الكِفل من بني إسرائيل التي وردت في السنة النبوية.

قصة كعب بن مالك رضي الله عنه

تخيل نفسك في عصر النبي ﷺ، هل كنت ستذنب في حضرته، وتقصر في طاعته التي هي من طاعة الله تعالى؟

هل تظن أن الذنوب التي يغفرها الله سبحانه وتعالى لها قدر معين، فإن تجاوزته فإن التوبة لا تشملها؟

ما ظنك بالتخلف عن أمر رسول الله ﷺ، وعدم اتباعه، وهو في أشد الحاجة إلى أتباعه أن يكونوا معه؟ ما حجم الذنب والمخالفة والتخلف عنه وقت الشدة والحاجة؟

هل تعلم أن بعض الصحابة وقع في ذنب التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة كانت فاصلة بين الإسلام والكفر، وكان الخروج فيها واجبًا على كل من قدر دون عذر أو استثناء؟

ماذا كانت نتيجة ذنبهم؟ وما الأمر الإلهي الذي صدر بحقهم؟

نعم لقد أذنب ثلاثة من الصحابة وتخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ومنهم كعب بن مالك رضي الله عنه، وقد قال الله تعالى فيهم:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ

عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

[سورة التوبة: ١١٧- ١١٨].

دعنا نتدبَّر النص و نناقش:

١. ما الذنب الذي وقع فيه هؤلاء الثلاثة؟

٢. لماذا سمَّى الله تلك الغزوة ساعة العسرة؟

٣. هل تاب الله عليهم في الحال؟ أم أُخِّرت التوبة عنهم؟

٤. هل هناك مفر ومهرب -مهما عظم الذنب- إلى غير الله سبحانه؟

نتيجة

إنَّ ما حدث للصحابة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من أشهر القصص التي تبين صدق التوبة مع الله، وأن الذنب مهما كان كبيرًا فإن باب التوبة أكبر وأوسع، ورحمة الله وفضله وسعت كل شيء، فلا ييأسك شيطانك إذا ما قارفت ذنبًا مهما عظم، فالله أعظم وأكرم.

اقرأ النص الآتي:

يقول كعب بن مالك ﷺ في سياق قصته بعد عودته ﷺ من الغزوة: فجئته فلما سلمت عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خَلَّفَك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟». فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَكَ علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تَجِدُ علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». [البخاري: ٤٤١٨، ومسلم: ٢٧٦٩]. وكان قد جاء قبل كعب بعض المنافقين الذين تخلَّفوا عن المعركة وتعذَّروا بأعذار كثيرة كاذبة.

ارجع إلى كتاب «من قصص الصحابة» من هذه السلسلة، واقرأ عن فضل الصحابة وحكمة الله سبحانه في اختيارهم لنبيه صلى الله عليه وسلم.

ناقش

- لماذا لم يعتذر كعب كما اعتذر الآخرون ولم يتعلَّل بما تعلَّلوا به؟
- هل التعلل بالأعذار الكاذبة أفضل من الصدق والإقرار بالخطأ؟
- ما نتيجة الصدق مع الله في الندم والتوبة والاعتراف بالذنب؟

خلاصة

إن عاقبةَ الصبر والصدق في الإقرار بالذنب والإنابة، توبةٌ من الله تعالى؛ وهي توبة لكل من سلك طريق هؤلاء الصحابة، وليست خاصة بهم وحدهم، فهي توبة واسعة عامة إلى يوم الدين. وإن أعظم نعم الله على العبد بعد إيمانه؛ صدقه وصبره، وها هو كعب يقول: "والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ، ألَّا أكون كَذَبْتُه، فأهلِك كما هلك الذين كذبوا".

[البخاري: ٤١٦٥]، ومسلم: [٥٠٨٠].

لنكمل القصة ونرى الابتلاء الشديد لكعب رضي الله عنه:

إن ما حدث لكعب ورفاقه أمر صعب وعسير؛ **حيث أمر رسول الله ﷺ بمقاطعتهم فلا يكلمهم أحد من الصحابة والأهل والأقارب**، وفي تلك المحنة الشديدة جاء كعبًا رسول من ملك غسان التابع للروم يدعوه للردة واللجوء إليهم، وإنزاله مكانة عزيزة لديهم، يقول كعب: "فبينا أنا أمشي في أسواق المدينة إذا نَبَطِيٌّ (فلَّاح) من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون إليَّ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا، فقرأت فإذا فيه: أما بعدُ، فإنَّه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضْيَعَةٍ، فالْحَقْ بنا نواسِك".

تخيل نفسك مكان كعب، ولخطأ بدر منك قاطعك أحب الناس إليك؛ فارقك معلمك وصديقك وزوجك. بتَّ وحيدًا، والناس حولك، تخاطبهم؛ فلا يجيبون، تنظر إليهم؛ فلا يلتفتون، وكأنك لاشيء! نكرة في مجتمعك وبين أصحابك. ضاقت عليك الأرض بوسعها، وضاقت عليك نفسك التي بين جنبيك، تتمنى الخلاص ولو بأي ثمن، ثم يأتيك الخلاص عبر رسالة ملك قوي، عنده العز ومجالس الأنس و لك في مجلسه التقدير، يقول لك: اترك دينك وتعال إلى عزِّك...

- **ما شعورك حين قاطعك قومك؟**
- **ما شعورك حين جاءتك دعوة الملك؟**
- **ماذا سيكون قرارك؟ ولماذا؟**
- **لو كنت مكان كعب بن مالك هل كنت ستسمع نداء نفسك وشيطانك؟**
- **لو جفاك أصحابك لسبب ما، هل كنت ستتأثر مباشرة، أم أنك ستصبر وتحتسب؟**
- **هل يمكن أن تؤثِّر فيك مغريات الدنيا وزينتها بعد أن هداك الله؟**
- **ما مقدار عزمك لو تعرضت للابتلاء؟**
- **هل ترى نفسك قادرًا على الثبات والمضي فيما عزمت عليه؟ أم أنك قد تتردد وتتراجع عند أول امتحان؟**

نشاط تخيلي

لاحظ

إن كعبًا لم تثنه عن إيمانه وعزيمته مغريات الدنيا ولا ابتلاءاتها، بل صبر واحتسب، وعدَّ ذلك من الفتنة التي تدعوه إلى الكفر بعد الإيمان، وإلى الردَّة بعد الثبات؛ فأحرق كتاب ملك غسان، ولم يضعف عن احتمال ما كتبه الله عليه، فقال: "ولأصبرن حتى يكتب الله لي خير الدنيا والآخرة"، فالصبر هو مفتاح النجاح مع صدق التوبة والإنابة.

إثراء

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

ارجع إلى كتب التفسير المعتمدة، وحاول أن تستنبط سبب ختم الله سبحانه وتعالى تلك الآيات عن المُخَلَّفين وتوبته عليهم بهذه الآية.

نتيجة

صدق التوبة وصدق النية له ثمرة عظيمة، فقد تنزَّل الوحي بتوبة الله على هؤلاء الصادقين بقرآن يتلى إلى يوم الدين، وهذا حال كل من صدق مع الله في توبته وإنابته ينال عظيم الثمرات.

فمع تخلف الثلاثة عن الغزو الذي كان في زمان الحر والشدة، ورغم فداحة الذنب وعظمته تجاوز الله عنهم وغفر لهم صنيعهم؛ لأنهم كانوا صادقين مع أنفسهم ومع الرسول الكريم ﷺ، فلم يخادعوه ولم يأتوا بأعذار كاذبة، بل صدقوا واعترفوا بتخلفهم، ولجؤوا إلى الله تائبين مستغفرين؛ فتاب الله عليهم.

نشاط إثرائي

١. ارجع إلى قصة كعب بن مالك كاملة كما أوردها البخاري ومسلم في صحيحيهما، واستنبط منها عشرة دروس وعبر، ثم اكتبها في دفترك.

٢. شارك أصدقاءك هذه الأفكار والفوائد المستنبطة، وناقشهم فيها، واذكر كيف يمكن أن تطبق هذه الدروس في حياتك.

٣. هل حدث لك أو لأحد ممن تعرفه شيء مما حدث لكعب بن مالك أو ما يشبهه بعد إسلامك؟ شارك أصدقاءك قصتك على مواقع التواصل الاجتماعي مبيِّنًا نتيجة التمسك بدينك وصبرك على أذى الناس، حتى أقرب الناس إليك.

قال ابن كثير:

"هذه الآية - وإن نزلت في أناس معينين- تشمل كل المذنبين الخاطئين المخلصين".

قصة أبي لبابة رضي الله عنه

تدبَّر قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢].

١. ارجع إلى كتب التفسير وأسباب النزول، وبيِّن سبب نزول هذه الآية، واذكر فيمن نزلت.

٢. هل هي آية خاصة بالشخص الذي نزلت فيه، أم هي عامة تشمل كل من خلط بين الصواب والخطأ، وبين الذنب والتوبة، وبين المعصية والاستغفار، وبين العمل الصالح والسيئ؟

٣. ما رأيك فيمن يُفْشِي أسرارًا عن قائده، أو من ائتمنه على أسراره، خاصة إذا كانت أسرارًا تتعلق بالدولة، ولها تأثير في قوة الدولة ومنعتها؟

٤. هل يغفر الله لمن أخطأ فأعلم العدو بأشياء عن جيش بلده وأمته، ثم ندم وتاب، إن اعترف بذنبه وأقر به؟

٥. أليست جريمة الخيانة جريمة عظيمة، ولا بد أن يدفع الخائن ثمنها؟

نشاط تمهيدي

هل تعلم: أن أحد الصحابة وقع في هذا الخطأ، واقترف ذنب إفشاء سر ائتمنه عليه رسول الله ﷺ؟ فمن هو؟ وما قصته، وما قصة توبته؟

لقد نزلت هذه الآية وما سبقها في الصحابي الجليل أبي لبابة رضي الله عنه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧].

وتبدأ القصة حين غدر بنو قريظة برسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب، فحاصرهم، وأجبرهم على الاستسلام والنزول على أمره، فطلبوا من رسول الله ﷺ استشارة أبي لبابة من المسلمين، لكونه حليفًا لهم، ولأن أمواله وولده كانوا في منطقتهم، فذهب إليهم، وسألوه هل ينزلون على حكم محمد ﷺ، فقال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، يقول: إنه الذبح. ثم انتبه من فوره أنه خان الله ورسوله بإعلامهم بحكم رسول الله ﷺ فيهم، فندم وربط نفسه بسارية المسجد حالفًا أنه لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وقال: "لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت" (سيرة ابن هشام).

١. **هل ترى عمل أبي لبابة** بربط نفسه وعقابه لها خوفًا من رسول الله؟ أم ندمًا على ذنبه وإفشائه لسر من أسرار الأمة؟

٢. **هل كان أبو لبابة يستطيع** أن يخفي ما فعله عن النبي ﷺ، ويستكتم اليهود أمره، إذ لم يطلع عليه أحد من المسلمين؟ وما الذي دفعه إلى ما فعل من العقاب بنفسه؟

لأخذ

التوبة تَجُبُّ ما قبلها، مادام التائب صادقًا فيها، ومعترفًا بذنبه، منيبًا إلى ربه، باكيًا من خطئه، خائفًا أن يوقعه في النار فيكون سبب هلاكه، والعياذ بالله.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء: ١٧].

- لماذا شدَّد الله في تحريم الخيانة؟
- هل الخيانة من صفات المؤمنين أم المنافقين؟ وما نتيجة من يخون الله ورسوله وأماناته؟
- هل تشمل التوبة الخائن إن تاب وأصلح قبل فوات الأوان؟

خلاصة

- إن من وقع في المعصية، ثم تذكر مراقبة الله له، وعلمه بما يسر ويعلن، ففزع من زلته، وأقر بذنبه، واعترف به، وبادر إلى الصدق والتوبة، فنجاته فيما أقر به واعترف، وفي عفو الله عنه وتوبته عليه.
- إن الله تعالى رحيم بعباده، لطيف بهم، لم يخلقهم ليعذبهم؛ بل أمهلهم ما دام في حياتهم بقية، وفي أجسادهم نَفَس يتردد، وما لم تبلغ الروح الحلقوم.
- إن من أسماء الله التواب الرحيم، فهو يتوب على المذنب ولو كان الذنب خيانة، مادام قد صدق في توبته وأخلص فيها.

نشاط

- ارجع إلى كتب السيرة النبوية، ولخِّص غزوة الأحزاب في دفترك، متحدِّثًا عن القبائل اليهودية التي كانت في المدينة، وعن سبب إخراجهم منها.
- هل كان رسول الله ﷺ سيخرج اليهود من المدينة إن أقاموا على العهد والميثاق؟ بيِّن ذلك من كتب السيرة النبوية.
- بيِّن -مستعينًا بكتب السيرة- موقف الصحابة من أبي لبابة بعد نزول توبة الله عليه.

نشاط إثرائي

ارجع إلى كتب سير الأعلام وتراجم التائبين من الصحابة والتابعين، واستخرج قصصًا عن توبتهم، ومحبة الله لهم بأن جعلهم على طريق الهداية والاستقامة، وشارك أصدقاءك تلك القصص.

قصة توبة الْكِفْلِ من بني إسرائيل

نشاط تمهيدي

لنتدبر قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

١. متى يكون الإنسان مسرفًا على نفسه؟

٢. هل الآية تخص بعض العاصين، أم تشملهم جميعًا مهما كانت ذنوبهم ومعاصيهم؟

نستطيع القول إن الطبيعة البشرية واحدة عبر الزمن، ولقد كان في الأمم السابقة من أسرف على نفسه، واتبع هواها، ولم يتورع عن معصية، لكنه حين تاب إلى الله تاب الله عليه، وغفر له ما تقدم من ذنبه كله.

لنتحدث عن مثال من هؤلاء:

إنه الكفل من بني إسرائيل، فما قصته؟

يروي لنا قصته الصحابي الجليل عبد الله بن عمر ﷺ، قال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ حَدِيثًا لو لم أسمعه إلا مَرَّةً أو مرتين حتى عد سبع مِرَارٍ، ولكن قد سمعته أكثر من ذلك، قال: «كان الكفل من بني

إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دِينَارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مَقْعَدَ الرجل من امرأته، أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرهتك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حملني عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا، ولم تفعليه قط؟ قال ثم نزل، فقال: اذهبي فالدنانير لك، ثم قال: والله لا يعصي الله الْكِفْلُ أَبَدًا. فمات من ليلته، فأصبح مَكْتُوبًا على بابه قد غفر الله عز وجل للكفل» [رواه أحمد: ٤٦٠٨، والترمذي: ٢٤٨٠].

في رأيك:

- **ما الذي جعل الكفل** جريئًا على معصية الله سابقًا؟ أهو المال أم القدرة والشباب أم الفراغ العاطفي أم ضعف النفس أم كل ذلك وغيره؟
- **ما سبب تكرار النبي** ﷺ لهذه القصة أمام الصحابة كثيرًا؟
- **ما العظات والحكم** التي تستفاد من هذه القصة في الحديث الشريف؟

إن عدم الإحساس بالنعمة والكفران بالمنعم، يجعل الإنسان الذي عافاه الله في بدنه، وسلَّمه في جسده، ووسَّع عليه في ماله ورزقه، منكِرًا لنِعَم الله عليه، فيقابل نعمة الله بالكفران، ويستعمل مال الله في معصية الله، ويسَخِّر بدنه الذي أصحه له الله في مساخطه، وهذا سببه الغفلة عن الله ونعمه الكثيرة، فبدل الشكر يكون الجحود والنكران.

لكن رحمة الله حين تدرك العبد تغير حاله من حال إلى حال، ومهما بلغ عتو العبد وعربدته فإنك لا تدري ما يختم له به، ولا تعلم ساعة هدايته، فمفاتيح القلوب بيد خالقها، وعلى الداعية وغيره ألا يتوقف عن تذكير العصاة بالحكمة والموعظة الحسنة ولو في حال معصيتهم؛ فكم من عاص ترك معصيته من فوره لما ذُكِّر بالله.

نتيجة

نشاط إثرائي

هل قرأت قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين أُغلِق عليهم بصخرة سدَّت عليهم المخرج، فدعا كل واحد منهم بعمل صالح كان قد عمله، وكان من بينهم ذاك العاصي الذي ترك الفاحشة بابنة عمه وحبيبة قلبه خوفًا من الله، ففرج الله عنهم؟

ارجع إلى قصة أصحاب الغار في كتب السنة، وسجلها في دفترك، ثم أطلع أصدقاءك عليها.

لاحظ

مقام الخوف من الله مقام عظيم، جعل الكِفْلَ يقوم عن المرأة وقد بلغ الأمر منتهاه، وجعل صاحب الغار يترك ابنة عمه وهي أحب الناس إليه، وترك كل واحد منهما المال للمرأة.

فالخوف من الله جعل كلًّا من الكِفْل وصاحب الغار يتركان الفاحشة في هذا الموضع الذي قد يصعب جدًّا على صاحبه ترك المعصية فيه؛ فعظَّم الله لهما المثوبة، فغفر للكفل، وأنقذ صاحب الغار.

خلاصة

إن عظيم عفو الله وصفحه عن خلقه، شمل الكِفل الذي كان قد ملأ الدنيا فسادًا، حتى لم يعد يتورع عن عمل أي ذنب، ومثل هذا لا يتوقع الإنسان منه توبة، ولكن فضل الله كان أوسع من ذنب الكفل، ورحمة الله له كانت أقرب إليه مما يتخيل، ورغم أن الأجل لم يمهله حتى يصلح ما أفسد، فقد محت توبته الصادقة عنه كل ما مضى، وقبل الله منه رجوعه إليه وعزمه على عدم العود، فغفر له وأظهر ذلك للناس؛ ليبقى الباب مفتوحًا أمام كل مذنب، وليبقى الرجاء في رحمة الله دائمًا لا ينقطع مهما كانت المخالفات ومهما بلغت السيئات، ويبقى منادي الله يُسمِعُ كل مريد للتوبة: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

إثراء

هل سمعت بقصص مشابهة عن وقوع أحدهم في المعصية ثم الكفِّ عنها خوفًا من الله، وطمعًا في عفوه ومغفرته.

ارجع إلى قصص عن التائبين على الشابكة، واختر منها خمسًا أثَّرت في وجدانك، ثم شاركها أصدقاءك، مبيِّنًا أثرها في نفسك وفي هدايتك وتثبيتك على طريق الهداية والتوبة.

التقويم

١ ما الذنب الذي وقع فيه كعب بن مالك ﷺ ؟

٢ لماذا صدَق كعب مع رسول الله ﷺ، ولم يكذب كالمنافقين؟

٣ هل كان كعب قادرًا على المراوغة والتبرير لتقصيره؟

٤ ما أثر صدق الإقرار بالذنب والندم عليه في حسن نتيجة الخروج من المحنة والابتلاء؟

٥ هل كانت محنة كعب طويلة أم قصيرة؟ ماذا تستنتج من ذلك؟

٦ هل كان خطأ أبي لبابة يسيرًا؟

٧ كيف أدرك أبو لبابة خطأه؟ وماذا فعل؟ وهل كان قادرًا على كتمان الأمر عن رسول الله ﷺ؟

٨ ما الذي دفع أبا لبابة إلى ربط نفسه بالسارية؟ ولماذا لم يُرِد أن يفكه إلا رسول الله ﷺ؟

٩ ما سبب توبة كل من الكِفل وصاحب الغار؟

١٠ هل يجوز أن نحكم على العاصي بأن نهايته ظاهرة من أعماله؟

١١ ما الذي يمكنك أن تستنبطه من قصص هؤلاء التائبين؟ اذكر أدلة على ما تقول.

١٢ بيِّن الفرق بين العاصي المذنب المقر بذنبه، وبين العابد الذي يظن نفسه أفضل من هذا العاصي؟ أيهما أقرب إلى الله، وأَوْلَى أن تناله رحمة الله وفضله؟

الخاتمة

تقدَّمْ أيها المسلم خطوات في طريق الوصول إلى الله ومحبته ومرضاته بالتوبة والإنابة، فالله يحب التوابين المتطهرين؛ طهارة الظاهر بالنظافة والاغتسال، وطهارة الباطن بالتوبة والابتعاد عن أمراض القلوب والمعاصي. اقترب أيها المسلم من ربك خطوات وخطوات، فإنك ما تقرَّبت إلى الله شبرًا إلا تقرب منك ذراعًا، ولو أقبلت عليه خطوات تمشي نحوه لأقبل إليك سبحانه هرولة.

وإيـاك وخطـوات الشـر والمعصيـة فقـد حـذَّر اللّه -تبـارك وتعالـى- منهـا وبيَّـن أنهـا خطـوات الشـيطان فقـال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقـرة: ١٦٨].

واحـذر أن يتلاعـب بـك الشـيطان ويدفعـك إلـى اليـأس مـن رحمـة اللّه إن زلَّت بـك القـدم، ولا تؤخـر توبـة عـن معصيـة بـدرت منـك اعتمـادًا علـى سـعة رحمـة اللّه، فأنـت لا تـدري متـى يأتـي المـوت ويحـل الأجـل ويكـون النـدم، وتذكـر دومًـا قـول اللّه سـبحانه وتعالـى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجـر: ٤٩- ٥٠].

اللهـم إنـا نسـألك أن توفقنـا للإصابـة، وتكرمنـا بالتوبـة والإنابـة، وأن تفتـح لأدعيتنـا أبـواب الإجابـة، وأن تذيقنـا بـرد عفـوك وحـلاوة مغفرتـك، فأنـت أهـل العفـو والمغفـرة.

حفظـك اللّه أيهـا القـارئ مـن كل سـوء، ووفقـك لـكل خيـر، وثبتـك علـى الطاعـة إلـى يـوم لقـاه سـبحانه، إنـه خيـر مسـؤول وأكـرم مأمـول، وهـو العزيـز الغفـور.

وصلى اللّه على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم بحمد اللّه وفضله.

مركز أصول
www.osoulcenter.com

يقدِّم هذا الكتاب معالجة لقضايا التوبة المختلفة؛ حيث سنستعرض فيه معناها، وشروطها، وآثارها، وطريقها، والأخطاء التي يقع فيها بعض من أراد التوبة، وسنوضح محبة الله للتائبين المنيبين، ونبيِّن أن الإنسان من طبيعته الغفلة والتقصير، وأن الله سبحانه وتعالى مُتَّصِف بصفات العفو والغفران، وأنه شديد العقاب سبحانه.

سنستعرض في الكتاب أيضًا بعض قصص التائبين؛ لنتأسى بهم، ونعلم أن الله تواب على من تاب، ورحيم بمن عاد إليه وأناب، وأنه قد أوجب التوبة على جميع المؤمنين في كل حال.

نرمي في هذا الكتاب إلى أن يعلم القارئ الكريم أهمية التوبة، وضرورة ملازمة المسلم لها في كل أوقات حياته، وأن يعرف حب الله للتوابين والمستغفرين، ويستشعر نعمة الإسلام الذي يهدم ما قبله من الكفر والعصيان، وأن يتعلَّمَ أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن الإنسان لا يرث الخطيئة كما في بعض الأديان والمعتقدات.

يأتي هذا الكتاب ضمن سلسلة السلوك والتزكية، التي تضم أربعة عشَر كتابًا بُنِيَت وَفق طريقة التعلم الذاتي؛ لإكساب المسلم ما يحتاج إليه من معارف تُعينه على تهذيب نفسه وتزكيتها، بُغية الثبات على دين الله، والدعوة إليه ونشره بين الآخرين.

osoulcenter

www.osoulcenter.com
لتحميل هذا الكتاب وغيره من الكتب، من خلال متجر أصول:

osoulstore.com